تجربة الدكتور أوكس

جول فيرن

تجربة الدكتور أوكس

تأليف
جول فيرن

ترجمة
أحمد شكل

مراجعة
شيماء طه الريدي

هنداوي

تجربة الدكتور أوكس

جول فيرن

Doctor Ox's Experiment

Jules Verne

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي سي آي سي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره،
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٩ ١٤٩٧ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة هنداوي سي آي سي.
يُمنَع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، ومن ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2018 Hindawi Foundation C.I.C.
Doctor Ox's Experiment/Jules Verne; this work is in the public domain.

المحتويات

الفصل الأول	٧
الفصل الثاني	٩
الفصل الثالث	١٣
الفصل الرابع	١٩
الفصل الخامس	٢٣
الفصل السادس	٢٩
الفصل السابع	٣٣
الفصل الثامن	٤١
الفصل التاسع	٤٧
الفصل العاشر	٤٩
الفصل الحادي عشر	٥٣
الفصل الثاني عشر	٥٩
الفصل الثالث عشر	٦١
الفصل الرابع عشر	٦٧
الفصل الخامس عشر	٧١
الفصل السادس عشر	٧٣
الفصل السابع عشر	٧٥

الفصل الأول

ما من طائلٍ من البحث عن بلدة كويكندن الصغيرة حتى على أفضل الخرائط.

* * *

إذا حاولتَ العثور على بلدة كويكندن الصغيرة على أي خريطة لإقليم فلاندر، سواء كانت قديمة أو حديثة، فلن تنجح على الأرجح. إذن، هل كويكندن إحدى تلك البلدات التي اختفت؟ لا. هل هي بلدة من المستقبل؟ قطعًا لا. إن هذه البلدة موجودة، بغضِّ النظر عما تقوله الخرائط، وظلت موجودة لنحو ثمانمائة أو تسعمائة سنة. بل إنها تضم ألفين وثلاثمائة وثلاثًا وتسعين نسمة، وتقع على بُعد ثلاثة عشر كيلومترًا ونصفٍ شمال غرب أودينارد، وخمسة عشر كيلومترًا جنوب شرق بروج، في قلب إقليم فلاندر. يمر نهر فار — وهو رافد صغير من نهر سخيلده — تحت جسورها الثلاثة، التي لا تزال مغطاة بسقف غريب من العصور الوسطى، مثل ذلك الذي يغطي جسور تورناي. ثمة قصر قديم يمكن رؤيته فيها، وُضع حَجرُ أساسه منذ فترة طويلة في عام ١١٩٧، على يد الكونت بالدوين، الذي أصبح بعد ذلك إمبراطور القسطنطينية، كما توجد دار بلدية تتزيَّن بنوافذ على الطراز القوطي، ويتوِّجها بُرج الرماية ذو الفتحات، ويحيط بها برج أجراسٍ كنسي يرتفع ثلاثمائة وخمسًا وسبعين قدمًا عن مستوى الأرض. ربما تسمع كل ساعةٍ موسيقى أجراسٍ مؤلَّفة من خمس نغمات ثُمانيَّة (كما لو كانت صادرة عن بيانو حقيقي معلَّق في الهواء) وتفوق شهرتها شهرة نغمات أبراج مدينة بروج الشهيرة. ولا يبرح الغرباء — لو ذهب أحد منهم إلى كويكندن — البلدة القديمة الغريبة حتى يزوروا «قاعة ستادهولدر» التي تُزينها صورة بالحجم الطبيعي لويليام كونت ناساو رسمها براندون، ويزوروا شرفة كنيسة سانت ماجلوير، وهي تحفة فنية معمارية من القرن السادس عشر، والبئرَ

الحديدية المسبوكة في ساحة سانت إرنوف الفسيحة، والزخرفة الرائعة المنسوبة إلى الحداد الفنان كوينتين ميتسيس، والمقبرة التي شُيدت سابقًا لماري بورجندي، ابنة شارل الجريء المدفون في كنيسة نوتردام في بروج، وغير ذلك من معالم. وتتمثل الصناعة الرئيسة في بلدة كويكندن في الكريمات المخفوقة، والسكاكر على نطاق واسع. وقد كان يحكمها آل تريكاس بالوراثة لعدة قرون. مع ذلك لا توجد كويكندن على خريطة إقليم فلاندر! هل نسيها الجغرافيون، أم أنه حَذْف مقصود؟ لا أعرف، ولكن كويكندن موجودة بالفعل، بشوارعها الضيقة، وجدرانها المحصنة، ومنازلها ذات الطراز الإسباني، وسوقها، وعُمدتها؛ حتى إنها كانت مؤخَّرًا مسرحًا لبعض الظواهر المدهشة، التي كانت حقيقية رغم أنها كانت غير مألوفة وكانت لا تُصدق، ستَرِد في القصة الحالية.

بالتأكيد لا يوجد ما يمكن أن يقال أو يشار إليه في حق الفلمنجيين الذين يعيشون في إقليم فلاندر الغربي؛ فهُم قوم تُميِّزهم الطِّيبة والحكمة والتعقُّل والنزعة نحو الاختلاط بالآخرين، وكذلك اللُّطف وحسن الضيافة، وربما يتسمون بالبطء في الحديث والتفكير أيضًا، ولكن هذا لا يفسِّر سبب عدم ظهور واحدة من أكثر بلداتهم إثارةً للاهتمام على الخرائط الحديثة.

من المؤكد أن هذا الإغفال سيؤسَف له. ليت التاريخ — أو إذا كان التاريخ قد عجز، فسجلات الوقائع، أو إذا كانت سجلات الوقائع قد أُهمِلت، فعُرْف البلاد — قد ذكر كويكندن! ولكن لم يحدث ذلك؛ فلم تتحدث عنها الأطالس ولا الأدلَّة السياحية، ولا يوميات الرحالة. وحتى إم جوان نفسه — الباحث النشط عن البلدات الصغيرة — لم يقُل عنها كلمة واحدة. ربما يكون من السهل التفكير في أن هذا الصمت من شأنه الإضرار بتجارة البلدة وصناعاتها، ولكن دعنا نسارع إلى إضافة أن كويكندن ليس لديها صناعة ولا تجارة، وتنعَم بالازدهار من دونهما؛ فالسكاكر والكريمات المخفوقة تُستهلك على الفور، ولا يُصدَّر منها شيء. باختصار، لا يحتاج سكان كويكندن لأي شخص؛ فرغباتهم محدودة، وحياتهم متوسطة، وهم هادئون ولطفاء وباردو الطبع؛ أي إنهم، في كلمة واحدة، فلمنجيون؛ ولا يزال بالإمكان مقابلة مثل هؤلاء الأشخاص أحيانًا بين نهر سخيلده وبحر الشمال.

الفصل الثاني

وفيه كان عمدة البلدة فان تريكاس يتشاور مع المستشار نيكلاوس حول شئون المدينة.

* * *

سأل العمدة: «هل تعتقد ذلك؟»

أجاب المستشار، بعد بضع دقائق من الصمت: «أعتقد ذلك.»

استطرد العمدة: «أتعْلم؟ يجب ألا نتصرف بتعجُّل.»

قال المستشار نيكلاوس: «لقد تحدَّثنا عن هذه المسألة الخطيرة على مدى عشر سنوات، وأعترف لك يا فان تريكاس المبجَّل أنني لا أستطيع أن أحمل على عاتقي مسئولية اتخاذ قرار بشأنها.»

قال العمدة، الذي لم يتكلم إلا بعد تفكير طال لما يزيد على ربع ساعة: «أتفهَّم ترددك تمامًا، أتفهَّمه، وأشاركك فيه تمامًا، فمن الحكمة ألا نتخذ قرارًا إلا بعد دراسة متأنية للمسألة.»

فردَّ نيكلاوس: «من المؤكد أن منصب المفوَّض المدني لا طائل منه في بلدة هادئة كبلدة كويكندن.»

قال فان تريكاس برزانة: «سلَفنا لم يقُل قطُّ، ولم يجرؤ حتى على القول، إن أي شيء مؤكد؛ فكل تأكيد يخضع لشروط عسيرة.»

أومأ المستشار برأسه ببطء مؤيدًا، ثم ظل صامتًا لنحو نصف ساعة تقريبًا. بعد هذه الفترة الزمنية التي لم يُحرِّك فيها المستشار أو العمدة ساكنًا، سأل نيكلاوس فان تريكاس عما إذا كان سلفه — أي قبل بضعة وعشرين عامًا — لم يفكر في إلغاء منصب

المفوَّض المدني هذا الذي يكلف بلدة كويكندن مبلغ ثلاثمائة وخمسة وسبعين فرنكًا وبعض السنتيمات.

أجاب العمدة، رافعًا يده بتَروٍّ مَلكي إلى حاجبه الكثيف: «أعتقد أنه فعل. لكن الرجل المبجَّل مات دون أن يجرؤ على اتخاذ قرار، سواء في هذا أو في أي إجراء إداري آخر. لقد كان حكيمًا، فلماذا لا أفعل كما فعل؟»

لم يكن لدى المستشار نيكلاوس قدرة على إبداء أي اعتراض على رأي العمدة.

وأضاف فان تريكاس في وقار ومهابة: «إن الرجل الذي يموت دون أن يتخذ قرارًا أبدًا في أي شيء خلال حياته يكون قد قارب حد الكمال.»

وعندما أتم العمدة عبارته، ضغط على جرس بطرف خنصره، أطلق صوتًا مكتومًا بدا تنهيدة أكثر منه صوتًا. وفي التوِّ سُمع صوت خطواتٍ خفيفة تنسلُّ بهدوءٍ بالغ فوق قرميد الأرضية؛ حتى إن فأرًا يجرى على سجادة سميكة كان سيُصدر ضوضاء أكبر. فُتح باب الغرفة مستديرًا على مفصلاته الناعمة الصامتة، وظهرت فتاة صغيرة ذات غدائر شقراء طويلة. كانت سوزيل فان تريكاس، ابنة العمدة الوحيدة. أعطت والدها غليونًا ممتلئًا حتى حافته، ومِجْمَرَةً نحاسيةً صغيرة، ولم تَنبِس ببنت شفة، واختفت على الفور دون إصدار أي صوت أثناء خروجها كما حدث أثناء دخولها.

أشعل العمدة المبجَّل غليونه، وسرعان ما اختفى وسط سحابة من الدخان الأزرق، تاركًا المستشار نيكلاوس غارقًا في تفكير عميق للغاية.

كانت الغرفة التي يتحدث فيها هذان الشخصان البارزان اللذان يتحملان مسئولية الحكم في كويكندن عبارة عن قاعة مُزيَّنة بنقوش على خشب داكن اللون. في أحد جوانب الغرفة تقبع مِدفأة ضخمة شاهقة، يمكن أن تُحرَق فيها شجرةُ بلوط أو يُشوى فيها ثور، وكانت تشغله بالكامل. وفي الجانب المقابل للمدفأة توجد نافذة ذات تعريشة، كان زجاجها الملون يخفِّف من حدَّة أشعة الشمس. وفي إطار عتيق فوق رفِّ المدفأة، وُضعتْ صورة لرجلٍ مبجَّل، منسوب رسمها إلى ميملينج، ولا شك أنها صورة لأحد أسلاف آل فان تريكاس، الذين يرجع تاريخ نسبهم إلى القرن الرابع عشر، وهي الفترة التي خاض فيها الفلمنجيون وجي دي دومبيه حروبًا ضد الإمبراطور رودولف من أسرة هابسبورج.

تلك القاعة هي الغرفة الرئيسية في منزل العمدة، الذي كان واحدًا من أجمل المنازل في كويكندن. بُني المنزل على النمط الفلمنكي، إذ كان مذهلًا للغاية يتسم بالجمال الأخَّاذ وروعة العمارة المدببة، وكان يُعتبر واحدًا من المعالم الأكثر لفتًا للأنظار في البلدة. لم يكن

ثمة ديرٌ للرهبان، أو مأوًى للصم والبكم أكثر هدوءًا من هذا القصر. لم يكن للضوضاء وجود؛ فلا يمشي الناس على أرضيته، بل ينسابون عليها بسلاسة؛ ولا يتكلمون، بل يهمسون. ومع ذلك، لم يغب التواجد النسائي عن المنزل، الذي كان يضم — بالإضافة إلى العمدة فان تريكاس نفسه — زوجته، السيدة بريجيت فان تريكاس، وابنته سوزيل فان تريكاس، ومديرة المنزل لوتشيه جانشو. ولا ننسى أيضًا شقيقة العمدة، العمة هيرمانس، وهي عجوز مُسنَّة لا تزال تحمل لقب تاتانمانس، الذي لقَّبتها به ابنة أخيها سوزيل عندما كانت طفلة. ولكن على الرغم من وجود كل عناصر الضجيج والضوضاء هذه، كان منزل العمدة هادئًا كصحراء خاوية.

كان العمدة في الخمسين من عمره تقريبًا، ولم يكن بدينًا ولا نحيفًا، ولا قصيرًا ولا طويلًا، ولا متورِّدًا ولا شاحبًا، ولا مرحًا ولا عبوسًا، ولا راضيًا ولا ساخطًا، ولا نشيطًا ولا كسولًا، ولا متكبرًا ولا متواضعًا، ولا طيبًا ولا شرِّيرًا، ولا سخيًّا ولا بخيلًا، ولا شجاعًا ولا جبانًا، ولا يتسم بالإفراط ولا التفريط في أي شيء؛ كان رجلًا معتدلًا بوضوح في جميع النواحي، وكان بطء حركته الدائم، وتدلِّي فكه السفلي قليلًا، وبروز حاجبيه، وضخامة جبينه الناعم كقطعة من النحاس والذي يخلو من أي تجعُّد، ستُبيِّن جميعها لأي متخصص في علم الفراسة أن العمدة تجسيد للامبالاة والبرود؛ فلا عاطفة من غضب أو انفعال كان من شأنها أن تزيد سرعة خفقات قلب هذا الرجل، أو تُسبِّب احمرار وجهه، ولم يضِق بؤبؤ عينيه قطُّ تحت تأثير أي انفعال، مهما كان عابرًا. وكان دائمًا ما يرتدي ملابس أنيقة، لا واسعة ولا ضيقة، ولم يبدُ أنها تَبْلى قطُّ. وكان ينتعل حذاءً مربع الطرف ثلاثي النعل ذا إبزيم فضي، عمَّر طويلًا حتى يئس صانع الأحذية من أن يبلى. وكان يرتدي على رأسه قبعةً كبيرة ترجع إلى الفترة التي كان فيها إقليم فلاندر منفصلًا عن هولندا، ومن ثَم كان عمر هذه التحفة المبهرة لا يقل عن أربعين عامًا. ولكن ماذا عن الجوهر؟ فالانفعالات هي ما يُبلي الجسم والروح، وتُبلي الملابس كذلك. ولكن عمدتنا المبجَّل فاتر الشعور، بليد العاطفة، غير مُبالٍ بأي شيء، لا يحمل شغفًا تجاه أي شيء. إنه لا يُبلي أي شيء، ولا حتى نفسه، ويعتبر نفسه الرجل الوحيد القادر على إدارة شئون كويكندن وسكانها الهادئين.

في الواقع، لم تكن البلدة أقل هدوءًا من قصر فان تريكاس. غير أن هذا المسكن الهادئ هو ما كان يعتمد عليه العمدة من أجل بلوغ أقصى حد من بقائه حيًّا على الأرض، بعد أن رأى زوجته السيدة بريجيت فان تريكاس تسبقه إلى القبر، حيث لن تجد بالتأكيد هدوءًا أكثر عمقًا من ذلك الذي تمتعت به على وجه الأرض على مدى ستين عامًا.

هذا يتطلب شرحًا.

ربما تصف أسرة فان تريكاس نفسها بأنها «أسرة خالدة»، وهذا هو السبب:

يعرف الجميع قصة «سكين جانو» الشهيرة التي اشتهرت باسم مالكها، وأنها خالدة لا تَبلَى، وذلك بفضل العملية المزدوجة، التي تتكرر باستمرار، باستبدال المقبض عندما يهترئ واستبدال النصل عندما يصبح بليدًا. ثمة عملية مماثلة تمامًا تحدث باستمرار منذ زمن سحيق في أسرة فان تريكاس، والتي أظهرت حيالها الطبيعة نفسُها رضًا أكبر من المعتاد؛ فمنذ عام ١٣٤٠، دائمًا ما كان فان تريكاس، عندما يصبح أرملًا، يتزوج مرة أخرى من سيدة تصغُره تحمل اسمه، وتتزوج هي بدورها مرة أخرى عندما تصبح أرملة من رجل أصغر منها سنًّا ليحمل بزواجه منها لقب فان تريكاس؛ وهكذا تسير الأمور، دون انقطاع لهذه الاستمرارية، من جيل إلى جيل. كان كِلا الزوجين يموت كلٌّ في دَوْرِه بانتظام ميكانيكي. وهكذا تكون السيدة بريجيت فان تريكاس قد تزوجت الآن زوجها الثاني، وما لم تخالف الطبيعة، فإنها ستسبق زوجها — الذي يصغرها بعشر سنوات — إلى العالم الآخر، لإفساح المجال لمدام فان تريكاس جديدة. وبناء على هذا، كان العمدة يؤمن إيمانًا راسخًا بأن التقاليد العائلية لا ينبغي كسرها. هكذا كان هذا القصر؛ هادئًا وساكنًا؛ فلا تُصدر الأبواب صريرًا أبدًا، ولا تهتز النوافذ أبدًا، ولا تصرُّ الأرضيات أبدًا، ولا تهدر المداخن أبدًا، ولا تُصفر دوَّارات الرياح أبدًا، ولا يُطقطِق الأثاث أبدًا، ولا تُقعقِع الأقفال أبدًا، ولا يصدر المقيمون في المنزل صوتًا أعلى من الأصوات التي تُصدرها ظلالهم. من المؤكد أن إله الصمت عند الإغريق هاربوكراتس كان سيختار هذا المنزل معبدًا للصمت.

الفصل الثالث

وفيه دخل المفوَّض باسوف مُحْدِثًا صخبًا غير متوقَّع.

* * *

عندما بدأت المحادثة المثيرة للاهتمام المذكورة آنفًا، كانت الساعة الثالثة إلا الربع بعد الظهر. وكانت الساعة الرابعة إلا الربع عندما أشعل فان تريكاس غليونه الكبير، الذي يمكن أن يحمل ربع جالون من التبغ، وفرغ من تدخينه في الخامسة وخمس وثلاثين دقيقة.

وطوال هذا الوقت لم يتبادل الرفيقان كلمة واحدة.

وعند السادسة تقريبًا، استأنف المستشار حديثه بأسلوبه المعتاد شديد الإيجاز، بهذه الكلمات:

«إذن، فقد قررنا ...»

أكمل العمدة: «ألَّا نتخذ قرارًا.»

«أعتقد أنك على حق إجمالًا يا فان تريكاس.»

«أعتقد ذلك أيضًا يا نيكلاوس، سنتخذ خطوات بخصوص المفوَّض المدني عندما نتعرف أكثر على الموضوع ... لاحقًا؛ لا حاجة لأن نتخذ قرارًا خلال شهر.»

ردَّ نيكلاوس: «ولا حتى خلال عام»، ثم سحب منديل جيبه ومسح أنفه برفق.

عمَّ الصمت مرة أخرى لما يقرب من ربع ساعة. لا شيء كان يقطع هذا التوقف المتكرر خلال المحادثة، ولا حتى ظهور كلب البيت لينتو، الذي لم يكن أقل هدوءًا من سيده، والذي جاء لتحية سيده في القاعة. كان كلبًا راقيًا؛ نموذجًا لجنسه. لو أنه كان كلبًا من الورق المقوَّى يسير على عجلات، لما كان أكثر هدوءًا منه خلال فترة تواجده.

بعد أن جلبت لوتشيه مصباحًا عتيقًا من الزجاج المصقول، وفي حوالي الساعة الثامنة، قال العمدة للمستشار:

«أليس لدينا أي مسألة عاجلة أخرى نناقشها؟»

«لا يا فان تريكاس؛ لا توجد أي مسائل أخرى عاجلة على حد علمي.»

سأل العمدة: «ولكن ألم يخبرني أحدهم أن برج بوابة أودينارد على وشك الانهيار؟»

أجاب المستشار: «آه! في الواقع لن أندهش إذا انهار فوق أحد المارة في أي يوم.»

«أوه! آمل أن نكون قد اتخذنا قرارًا بشأن هذا البرج قبل وقوع هذه المصيبة.»

«آمل ذلك يا فان تريكاس.»

«ثمة مسائل أكثر إلحاحًا ينبغي اتخاذ قرار بشأنها.»

«لا شك في هذا، منها على سبيل المثال مسألة سوق الجلود.»

«ماذا، ألا يزال يحترق؟»

«لا يزال يحترق، وظل يحترق على مدى الأسابيع الثلاثة الماضية.»

«ألم نقرر في المجلس أن نتركه يحترق؟»

«نعم، بناء على اقتراحك.»

«أليست هذه هي أفضل وأبسط طريقة للتعامل معه؟»

«لا شك في هذا.»

«حسنًا، دعنا ننتظر. هل ثمة شيء آخر؟»

أجاب المستشار حاكًّا رأسه، كما لو كان يتأكد من أنه لم ينسَ شيئًا آخر مهمًّا: «لا.»

قال العمدة: «آه! ألم تسمع أيضًا شيئًا بخصوص تسرُّبٍ للمياه يهدِّد بإغراق حي سانت جاك المنخفض؟»

«بلى سمعت. من المؤسف حقًّا أن هذا التسرب للمياه لم يحدث فوق سوق الجلود! كان سيطفئ النيران تلقائيًّا؛ ومن ثَمَّ كان سيوفر علينا قدرًا كبيرًا من النقاش.»

«ماذا يمكن أن تتوقع يا نيكلاوس؟ لا يوجد ما هو غير منطقي مثل الحوادث؛ فهي لا تتقيد بأي قواعد، ولا يمكننا أن نستفيد من كارثة في معالجة أخرى كما نتمنى.»

استغرق استيعاب هذه الملاحظة الدقيقة بعض الوقت من رفيق فان تريكاس.

بدأ المستشار نيكلاوس الكلام بعد مرور بضع لحظات وقال: «حسنًا، ولكننا لم نتحدث عن مسألتنا الكبيرة!»

تساءل العمدة: «أي مسألة كبيرة؟ ألدينا مسألة كبيرة؟»

«بلا شك. مسألة إضاءة البلدة.»

«نعم، لو كانت ذاكرتي تسعفني، فأنت تشير إلى خطة الإضاءة التي وضعها الدكتور أوكس.»

«بالضبط.»

ردَّ العمدة: «الخطة قيد التنفيذ؛ إنهم يركِّبون الأنابيب، وانتهى بناء المصنع تمامًا.»

هزَّ المستشار رأسه وقال: «لعلنا قد تسرَّعنا قليلًا في هذه المسألة.»

«ربما، ولكن عذرنا هو أن الدكتور أوكس سيتحمل كامل نفقات تجربته، ولن يكلفنا ذلك فلسًا واحدًا.»

«حقًّا هذا هو عذرنا، وعلاوةً على ذلك، علينا مواكبة العصر. وإذا نجحت التجربة، فستكون كويكندن أول بلدة في إقليم فلاندر تضيء مصابيحها باستخدام الأوكسي ... ماذا يسمى الغاز؟»

«غاز الأوكسيهيدريك.»

«حسنًا، غاز الأوكسيهيدريك.»

وفي هذه اللحظة، فُتح الباب، ودلفت لوتشيه لتُخبر العمدة أن العشاء جاهز.

وقف المستشار نيكلاوس ليستأذن في الرحيل فان تريكاس، الذي تحركت شهيته بسبب المسائل الكثيرة التي نوقشت والقرارات التي اتُّخذت؛ واتفقا على وجوب انعقاد مجلس الأعيان بعد إرجاء الانعقاد لفترة طويلة نوعًا ما من أجل تحديد ما إذا كان ينبغي التوصل إلى قرار مبدئي بخصوص مسألة بوابة أودينارد الملحَّة حقًّا.

ثم توجه المسئولان المبجَّلان نحو البوابة، يوجِّه أحدهما الآخر. وعندما وصل المستشار إلى الشارع، أضاء مشكاة صغيرة يسترشد بها في شوارع كويكندن المظلمة التي لم يُضئها الدكتور أوكس بعدُ. كانت ليلة من ليالي أكتوبر المظلمة، وقد غطَّى البلدةَ ضبابٌ خفيف.

استغرقت استعدادات نيكلاوس للمغادرة ما لا يقل عن ربع ساعة؛ إذ كان عليه، بعد أن أضاء مصباحه، أن يرتدي جوربه الكبير المصنوع من جلد البقر، وقفازه المصنوع من جلد الأغنام، ثم رفع ياقة معطفه المكسوَّة بالفرو، ورفع حافة قبعته المصنوعة من اللباد فوق عينيه، وأمسك مظلته الثقيلة التي تشبه منقار الغراب، واستعد لبدء رحلته.

وعندما كانت لوتشيه على وشك سحب مزلاج الباب بينما تضيء لسيدها، سُمع ضجيج غير متوقع في الخارج.

نعم! كان ذلك شديد الغرابة؛ ضجيج، ضجيج حقيقي، ضجيج لم تسمعه البلدة بالتأكيد منذ استولى الإسبان على البرج المحصَّن في عام ١٥١٣؛ كانت ضوضاء رهيبة أيقظت الأصداء النائمة منذ زمن طويل في قصر المبجَّل فان تريكاس.

طرق شخصٌ ما بقوة على هذا الباب، الذي لم يتلقَّ مثل هذه المعاملة الوحشية قطُّ! ثم تضاعفت الطَّرقات باستخدام أداة غليظة، ربما كانت هراوة تحملها ذراع قوية. وامتزجت الطَّرقات بصرخات ونداءات، وسُمعت هذه الكلمات بوضوح:

«أيها السيد فان تريكاس! أيها العمدة! افتح الباب، افتح بسرعة!»

تبادل العمدة والمستشار نظرات الدهشة الشديدة دون كلام.

تخطَّى ما يحدث قدرتهما على الفهم. لو أن قذيفة من المدفع القديم في القصر — الذي لم يُستخدم منذ عام ١٣٨٥ — أُطلقت في قاعة الاستقبال، لما كان سكان قصر فان تريكاس سيصابون بمثل هذا الذهول.

وفي الوقت نفسه، تكررت الطَّرقات والصرخات. استعادت لوتشيه هدوءها واستجمعت شجاعتها وقالت:

«مَن الطارق؟»

«أنا! أنا! أنا!»

«من أنت؟»

«المفوَّض باسوف!»

المفوَّض باسوف! الرجل نفسه الذي كان منصبه خاضعًا لفكرة الإلغاء على مدى عشر سنوات. ماذا حدث إذن؟ هل غزا البورجنديون كويكندن كما فعلوا في القرن الرابع عشر؟ لا يوجد حدث أقل أهمية يمكن أن يحرك المفوَّض باسوف بهذه الطريقة، وهو الذي يضاهي العمدة نفسه في الهدوء وبرود الطبع.

وبإشارة من فان تريكاس — الذي لم يستطع أن يَنبِس ببنت شفة — دُفع المزلاج للخلف وفُتح الباب.

اندفع المفوَّض باسوف إلى حجرة الانتظار بشكل قد يجعلك تعتقد أن هناك إعصارًا.

«ما الأمر سيدي المفوض؟» قالتها لوتشيه؛ وهي امرأة شجاعة لم تفقد رباطة جأشها حتى في أصعب الظروف.

أجاب باسوف وعيناه الكبيرتان المستديرتان تُظهران حنقًا حقيقيًّا: «ما الأمر! الأمر هو أنني جئت لتوِّي من عند الدكتور أوكس، الذي كان يقيم حفل استقبال، وحدث هناك أن ...»

«هناك؟»

«شهدتُ هناك مشادة كلامية سيدي العمدة؛ إذ كانوا يتحدثون في السياسة!»

كرَّر فان تريكاس الكلمة ممررًا أصابعه عبر شعره المستعار: «سياسة!»

استأنف المفوَّض باسوف حديثه: «نعم السياسة! وهو ما لم يحدث منذ مائة سنة تقريبًا في كويكندن. ثم حميت المناقشة، وبلغ المحامي أندريه شوت والطبيب دومينيك كوستوس من العنف مبلغه، حتى إنهما قد يتحدى كلٌّ منهما الآخر في مبارزة.»

صرخ المستشار: «يتحدى كلٌّ منهما الآخر في مبارزة! مبارزة! مبارزة في كويكندن! وماذا قال المحامي شوت والطبيب كوستوس؟»

«هذا ما حدث بالضبط؛ قال الطبيب لخصمه: «سيدي المحامي، أرى أنك تماديتَ كثيرًا، ويبدو لي أنك لا تنتبه لألفاظك!»»

شبَّك العمدة فان تريكاس يديه، وشحب وجه المستشار وسقط المصباح من يده، وهز المفوَّض رأسه. فكيف تصدر مثل هذه العبارة المستفِزَّة للغاية من قِبَل رجلين من كبار رجال البلدة؟!

غمغم فان تريكاس قائلًا: «هذا الطبيب كوستوس بالتأكيد رجل خطير. يا له من شخص طائش! تفضَّلا أيها السيِّدان!»

ورافق المستشار نيكلاوس والمفوَّض العمدة إلى قاعة الاستقبال.

الفصل الرابع

وفيه يظهر الدكتور أوكس نفسه متخصصًا في الفسيولوجيا من الطراز الأول، وخبيرًا في التجارب العلمية الجريئة.

* * *

إذن، مَن كانت هذه الشخصية البارزة التي لا تُعرف إلا باسم الدكتور أوكس وحسب؟

إنه شخصية غريبة الأطوار، ولكنه في الوقت نفسه عالم جريء، ومتخصص في الفسيولوجيا، اشتهرت أعماله ولاقت تقديرًا كبيرًا في جميع أنحاء أوروبا المثقفة، وكان منافسًا محظوظًا لديفي ودالتون وبوستوك ومينزيس وجودوين، وفيرورت؛ كل تلك العقول اللامعة التي وَضعت الفسيولوجيا بين أرقى العلوم الحديثة.

كان الدكتور أوكس رجلًا متوسط الحجم والطول، وكان يبلغ من العمر ...؛ لا يمكننا أن نحدِّد سِنَّه أو حتى جنسيته. إضافة إلى ذلك، فإن الأمر لا يهم كثيرًا؛ دعنا نكتفِ بوصفه بأنه كان شخصية غريبة متهورة سريعة الانفعال، كأي شخصية غريبة من إحدى روايات هوفمان، وكان شخصية تتناقض على نحو ممتع مع سكان كويكندن الطيبين. كانت لديه ثقة لا تتزعزع سواء في نفسه أو في معتقداته. وكان دائم الابتسام، يمشي رافعًا رأسه فاردًا ظهره بحرِّية ودون تكلف، مع نظرة ثابتة، ومنخارين كبيرين، وفم واسع يستنشق الهواء بكميات كبيرة، وكان مظهره ينم عن الابتهاج. كان مفعَمًا بالحيوية كثير الحركة، وكانت جميع أجزاء جسده متناسقة جيدًا، وكان لا يهدأ ولا يستقر ومرنًا إلى أقصى درجة. لم يكن يستطيع أن يستقر قطُّ في مكان واحد، وكان لا يهدأ إلا بإطلاق الكلمات المتهورة والإيماءات الغزيرة.

هل كان الدكتور أوكس بهذا الثراء لكي يأخذ على عاتقه إضاءة بلدة كاملة على نفقته؟ ربما؛ لأنه سمح لنفسه أن ينغمس في مثل هذا الإسراف؛ وهذا هو الجواب الوحيد الذي يمكن أن نقدِّمه لهذا السؤال المتهور.

كان الدكتور أوكس قد وصل إلى كويكندن قبل خمسة أشهر، يرافقه مساعده المدعو جيديون إيجين، وكان رجلًا طويل القامة، جافًّا، نحيفًا، متغطرسًا، ولا يقل حيوية عن سيده.

إضافة إلى ذلك، لماذا قدَّم الدكتور أوكس اقتراحًا بإضاءة البلدة على نفقته الخاصة؟ لماذا اختار سكان كويكندن المسالمين، من بين جميع سكان إقليم فلاندر، لمنح بلدتهم فوائد نظام إضاءة لم يُسمع عنه من قبل؟ ألم ينوِ، متسترًا تحت هذه الذريعة، إجراء تجربة فسيولوجية كبيرة باستخدامهم كفئران تجارب؟ باختصار، ما الذي كانت هذه الشخصية الغريبة الأطوار على وشك القيام به؟ لا نعرف؛ إذ لم يكن الدكتور أوكس يثق بأحد إلا مساعده إيجين، الذي كان بدوره يطيعه طاعة عمياء.

اتفق الدكتور أوكس، ظاهريًّا على الأقل، على إضاءة البلدة، التي كانت بحاجة كبيرة إلى الإضاءة، «لا سيما في الليل»، كما قال المفوَّض باسوف بذكاء. وبناء على ذلك شُيِّد مصنع لإنتاج غاز إضاءة؛ كانت مقاييس الغاز جاهزة للاستخدام، وكانت الأنابيب الرئيسية الممتدة تحت أرصفة الشوارع، على وشك الظهور في شكل مشاعل في المنشآت العامة والمنازل الخاصة لبعض المؤيِّدين للفكرة من محبي التقدم. وكان فان تريكاس ونيكلاوس، بصفتهما الرسمية، وبعض الأعيان الآخرين، يعتقدون أن عليهم السماح بإدخال نظام الإضاءة الحديث إلى مساكنهم.

وإذا لم ينسَ القارئ، فقد ذُكر خلال المحادثة الطويلة بين المستشار والعمدة أن إضاءة البلدة لن تتم عن طريق حرق الهيدروجين المكربن المعروف الناتج عن تقطير الفحم، وإنما عن طريق استخدام الغاز الأحدث والأروع — غاز الأوكسيهيدريك — الذي ينتج من خلط الهيدروجين والأكسجين.

كان الدكتور بارعًا في الكيمياء كبراعته في علم الفسيولوجيا، وكان يعرف طريقة الحصول على هذا الغاز بكميات كبيرة وبجودة عالية، ليس باستخدام منجنات الصودا وفقًا لطريقة السيد تيسيه دو موتاي، ولكن عن طريق الانحلال المباشر للمياه الحمضية قليلًا، باستخدام بطارية مصنوعة من عناصر جديدة اخترعها بنفسه. وبالتالي لم يكن يوجد مواد مكلفة، لا بلاتين، ولا معوجَّات تقطير، ولا مواد قابلة للاشتعال، ولا آلات دقيقة ومعقَّدة لإنتاج الغازَين منفصلَين؛ إذ كان يُمرَّر تيار كهربائي عبر أحواض كبيرة مليئة

بالماء، فيتحلل الماء إلى مكوِّنَيه، الأكسجين والهيدروجين. مُرِّر الأكسجين نحو أحد الطرفين، ومُرِّر الهيدروجين — الذي يبلغ حجمه ضعف حجم شريكه السابق — نحو الطرف الآخر. وكإجراء احترازي ضروري، جُمع الغازان في خزانات منفصلة؛ لأن خليطهما كان سيؤدي إلى انفجار مُخيف إذا ما تعرض للاشتعال. ومن ثم كانت الأنابيب تنقلهما على نحو منفصل إلى المشاعل المتعددة، والتي ينبغي وضعها بطريقة معينة لوأد أي فرصة للانفجار. وهكذا يمكن الحصول على لهب لامع للغاية ينافس ضوءُه الضوء الكهربائي، والذي يساوي — كما يعلم الجميع ووفقًا لتجارب كاسلمان — ألفًا ومائة وواحدًا وسبعين شمعة بالضبط؛ لا أكثر ولا أقل.

كان مؤكدًا أن بلدة كويكندن ستحصل على إضاءة رائعة من خلال هذا الاختراع الكبير؛ ولكن الدكتور أوكس ومساعده لم يضعا هذا في الاعتبار كثيرًا، كما سترى في تتمة القصة.

في اليوم التالي لليوم الذي دخل فيه باسوف بصخبه وضوضائه إلى قاعة العمدة، كان جيديون إيجين والدكتور أوكس يتحدثان في المختبر الذي يشتركان فيه معًا في الطابق الأرضي من المبنى الرئيسي لمصنع الغاز.

صاح الطبيب وهو يفرك يديه: «حسنًا يا إيجين، حسنًا. لقد رأيت في حفل الاستقبال الذي أقمته أمس برود أعصاب أعيان كويكندن. إنهم يصنَّفون، على مستوى الحركة والحيوية، بين الإسفنج والمرجان! هل رأيتهم يتنازعون ويستفزون أحدهم الآخر بالصوت والإيماء؟ لقد تحولوا بالفعل، أخلاقيًّا وجسديًّا! وهذه هي البداية فقط. انتظر حتى نُعرِّضهم لجرعة كبيرة!»

أجاب إيجين، حاكًّا أنفه المدبب بطرف سبابته: «بالفعل يا سيدي. إن التجربة تبدأ جيدًا، ولولا أنني أغلقت صنبور الإمداد بحصافة، لا أعرف ماذا كان سيحدث.»

استأنف الطبيب أوكس حديثه قائلًا: «هل سمعتَ المحامي شوت والطبيب كوستس؟ إن العبارة في حد ذاتها ليست، بأي حال من الأحوال، عنيفة، ولكن عندما تخرج من فم أحد سكان كويكندن، فإنها تعادل كل الإهانات التي ألقاها أبطال هوميروس بعضهم على بعض قبل سحب سيوفهم. آه، يا لهؤلاء الفلمنجيون! سترى ماذا سنفعل يومًا ما!»

أجاب إيجين بلهجة رجل يقدر الجنس البشري بقيمته الحقيقية: «سوف نجعلهم جاحدين لنا.»

قال الدكتور بازدراء: «وما بالنا إن أحسنوا أو أساءوا بنا الظن، ما دامت تجربتنا تسير نحو النجاح؟»

رد المساعد بابتسامة خبيثة: «إلى جانب ذلك، ألا توجد مخاوف من الإضرار برئات أهل كويكندن الطيبين بشكل ما، باستثارتنا لأجهزتهم التنفسية بهذا الشكل؟»

«هذا لصالح العلم حتى إن لم يكن في صالحهم! ماذا كنت ستفعل لو رفضت الكلابُ أو الضفادع الخضوعَ لتجارب تشريح الكائنات الحية؟»

من المحتمل أنه لو خُيِّرت الضفادع والكلاب، لأبدت اعتراضًا ما؛ ولكن الدكتور أوكس تصور أنه قدَّم حجة لا يمكن الرد عليها، إذ أطلق تنهيدة ارتياح كبيرة.

أجاب إيجين، كما لو كان مقتنعا تمامًا: «رغم كل شيء يا سيدي، أنت على حق. لم نكن نستطيع أن نجد أفراد بحث لتجربتنا أفضل من سكان كويكندن.»

كرر الدكتور كل كلمة ببطء: «لم ... نكن ... لنجد.»

«هل قستَ معدلات نبض أيٍّ منهم؟»

«بضع مئات.»

«وما متوسط النبض الذي توصلت إليه؟»

«لم يصل خمسين نبضة في الدقيقة. أترى، هذه بلدة لم تحدث فيها ولو مناقشة بسيطة على مدار قرن، ولا يتسابُّ فيها السائقون أبدًا، ولا يهين سائقو الحافلات أحدهم الآخر، ولا تهرب الخيول، ولا تعقر الكلاب أحدًا، ولا تخدش القطط شخصًا؛ إنها بلدة لا تفعل فيها الشرطة شيئًا طوال السنة؛ بلدة لا يتحمس فيها الناس لأي شيء، سواء لفن أو أعمال تجارية؛ بلدة يُعدُّ فيها خفير الدرك أقرب إلى أسطورة؛ بلدة لم يصدر فيها اتهام لشخص على مدار مائة عام. باختصار، هي بلدة لم يسدِّد فيها شخصٌ لكمةً بقبضته لشخص آخر أو يحدث تبادل للصفعات على مدى ثلاثة قرون! أتعلم يا إيجين، لا يمكن أن يستمر هذا. علينا تغيير كل شيء.»

صاح المساعد متحمسًا: «هذا صحيح تمامًا! وهل قمت بتحليل هواء هذه البلدة يا سيدي؟»

«بالطبع فعلت ذلك؛ تسعة وسبعون بالمائة من النيتروجين، وواحد وعشرون بالمائة من الأكسجين، وحمض الكربونيك والبخار بكميات متباينة. وهذه هي النسب العادية.»

أجاب إيجين: «هذا جيد للغاية يا دكتور. ستُجرى التجربة على نطاق واسع وستكون حاسمة.»

أضاف الدكتور أوكس بلهجة المنتصر: «وإذا كانت حاسمة، فسنُصلح العالم!»

الفصل الخامس

وفيه يزور العمدة والمستشار الدكتور أوكس، وما يلي ذلك.

* * *

أخيرًا عرف المستشار نيكلاوس والعمدة فان تريكاس ما يعنيه المرور بليلة عصيبة؛ فقد جافى النوم جفونهما بسبب الحدث الخطير الذي وقع في منزل الدكتور أوكس. ما العواقب التي ستترتب على هذه المسألة؟ لم يستطيعا تخيُّلها. هل سيكون من الضروري أن يتخذا قرارًا؟ وهل ستضطر السلطة المحلية، التي يمثلانها، إلى التدخل؟ هل سيضطران إلى إصدار أوامر اعتقال، لئلا تتكرر هذه الفضيحة الكبرى؟ أبت كل هذه الشكوك إلا أن تؤرِّق هاتين الطبيعتين الهادئتين. وفي ذلك المساء، قبل أن يمضي كلٌّ في سبيله، «قرر» الاثنان أن يتقابلا في اليوم التالي.

في صباح اليوم التالي، وقبل الغداء، ذهب العمدة فان تريكاس شخصيًّا إلى منزل المستشار نيكلاوس، ووجد صديقه وقد أصبح أكثر هدوءًا، وكان هو نفسه قد استعاد رباطة جأشه.

سأل فان تريكاس: «هل من جديد؟»

رد نيكلاوس: «لا جديد منذ أمس.»

«وماذا عن الطبيب دومينيك كوستوس؟»

«لم أسمع عنه أيَّ شيء، ولا عن المحامي أندريه شوت.»

بعد محادثة دامت ساعة، تألَّفت من ثلاث ملاحظات لا داعي لتكرارها، قرر المستشار والعمدة زيارة الدكتور أوكس، لكي يطَّلعا منه على بعض تفاصيل الأمر، دون أن يبدو أنهما يسعيان لذلك.

وخلافًا لكل عاداتهما، بعد التوصل إلى هذا القرار بدأ الاثنان تنفيذه على الفور؛ فغادرا المنزل وتوجَّها نحو مختبر الدكتور أوكس الذي كان يقع خارج البلدة بالقرب من بوابة أودينارد؛ وهي البوابة التي يوشك برجها على الانهيار.

لم يمسك أحدهما بذراع الآخر، ولكنهما سارا جنبًا إلى جنب، بخطوات بطيئة ورصينة، حيث بلغت سرعتهما ثلاث عشرة بوصة في الثانية الواحدة. كانت هذه المشية في الواقع هي المشية العادية لسكان كويكندن، الذين لم يسبق لهم قطُّ أن رأوا أي إنسان يجري في شوارع بلدتهم.

ومن آن لآخر، كان الرجلان يتوقفان عند تقاطُعِ طُرقٍ هادئٍ وساكن، أو في نهاية شارع هادئ، لتحية المارة.

قال أحد المارة: «صباح الخير سيدي العمدة.»

رد فان تريكاس: «صباح الخير يا صديقي.»

وسأل آخر: «هل من جديد سيدي المستشار؟»

أجاب نيكلاوس: «لا جديد.»

ولكن كان جليًّا من الحركات العصبية والنظرات المتسائلة أن أنباء مشادَّة الليلة السابقة قد انتشرت في جميع أنحاء البلدة. وبملاحظة الاتجاه الذي يتخذه فان تريكاس، خمَّن حتى أكثر الأشخاص غباءً في كويكندن أن العمدة كان في طريقه لاتخاذ خطوة مهمة. تناثرت الأحاديث عن مسألة كوستوس وشوت في كل مكان، ولكن لم يصل الناس بعدُ إلى نقطة اتخاذ جانب أحدهما ضد الآخر. لم يخسر المحامي شوت قطُّ أي دعوى؛ إذ لم تُتَح له من الأساس فرصة الترافع أمام القضاء في بلدة لا يوجد فيها المحامون وحاجب المحكمة إلا بحكم العادة. أما بالنسبة إلى الطبيب كوستوس، فقد كان طبيبًا جديرًا بالاحترام، والذي — اقتداءً بزملائه الأطباء — عالج جميع أمراض مرضاه، باستثناء تلك التي ماتوا بسببها؛ وهي العادة التي يكتسبها للأسف طلاب جميع كليات الطب في أي بلد يمارسون فيه الطب.

عند الوصول إلى بوابة أودينارد، انعطف المستشار والعمدة بحذر من حولها انعطافة قصيرة، حتى لا يمرا بجوار البرج، خوفًا من احتمال انهياره فوقهما. ثم الْتفَّا للخلف ونظرا إليه باهتمام.

قال فان تريكاس: «أعتقد أنه سيسقط.»

رد نيكلاوس: «أعتقد ذلك أيضًا.»

أضاف فان تريكاس: «ما لم يخضع للترميم. ولكن هل يجب أن يُرمَّم؟ هذا هو السؤال.»

«هذا — في الواقع — هو السؤال.»

وبعد بضع لحظات، وصلا إلى باب مصنع الغاز.

سألا: «هل نستطيع مقابلة الدكتور أوكس؟»

كان الدكتور أوكس متهيِّئًا دائمًا لمقابلة أكبر مسئولي البلدة. وعلى الفور أُدخِل الرجلان إلى مكتب الفسيولوجي الشهير.

انتظر المسئولان البارزان الدكتور قرابة الساعة إن لم يكن أكثر؛ من المعقول على الأقل أن نفترض ذلك؛ إذ أبدى العمدة، لأول مرة في حياته، قدرًا من نفاد الصبر، لم يُعفَ منه المستشار.

وصل الدكتور أوكس أخيرًا، وأبدى اعتذاره لإبقائهما منتظرَين، ولكن كان عليه أن يضع خطة لمقياس الغاز، ويعاير بعض الآلات، ولكن كل شيء يسير على ما يرام! فقد رُكِّبَت بالفعل الأنابيب المخصَّصة للأكسجين، وفي غضون بضعة أشهر سوف تُضاء البلدة على نحو رائع. واستطاع الرجلان آنذاك رؤية فتحات الأنابيب التي وُضعت في المختبر.

ثم تساءل الدكتور عن سبب تشريفه بهذه الزيارة.

أجاب فان تريكاس: «من أجل رؤيتك وحسب يا دكتور. لقد مضى وقت طويل منذ قابلناك آخر مرة، ونحن لا نخرج من بلدتنا الطيبة كويكندن إلا قليلًا. نحن نحسب خطواتنا ونقيس تحركاتنا، ونشعر بالسعادة عندما لا يعكِّر الالتزامَ بعاداتنا شيء.»

حدَّق نيكلاوس في صديقه؛ فلم يسبق أن قال صديقه كل هذه الكلمات قطُّ دفعة واحدة؛ على الأقل، دون تمهُّل ووقفات طويلة بين العبارات. وبدا له أن فان تريكاس عبَّر عن نفسه بطلاقةٍ حقيقية، لم تكن بأي حال من الأحوال مألوفة منه. واستشعر نيكلاوس نفسُه رغبةً في التحدث لم يستطع مقاومتها.

أما بالنسبة إلى الدكتور أوكس، فقد تطلَّع إلى العمدة باهتمام خبيث يُخفي وراءه شيئًا.

وقف فان تريكاس على قدميه؛ وهو الذي لم يكن يدخل قط في نقاش إلا بعد أن يجلس مستريحًا في كرسيٍّ واسع بذراعين. لا أعرف أي استثارة عصبية تملَّكته، وكانت بالفعل غريبة على طبعه. لم يكن قد أشار بيديه حتى الآن، ولكنَّ هذا لم يكن مستبعَدًا. أما بالنسبة إلى المستشار، فكان يفرك ساقَيه، ويُطلق أنفاسًا بطيئة وطويلة. وشيئًا فشيئًا بدت الحيوية على قسماته، و«قرر» دعم صديقه العمدة الموثوق به، مهما كانت المخاطرة، إن لزم الأمر.

وقف فان تريكاس وسار عدة خطوات، ثم عاد، ووقف في مواجهة الدكتور.

تساءل بنبرة حاسمة نوعًا ما: «كم شهرًا قلتَ إن العمل سينتهي خلالها؟»

ردَّ الدكتور أوكس: «خلال ثلاثة أو أربعة أشهر سيدي العمدة.»

قال فان تريكاس: «ثلاثة أو أربعة أشهر؛ إنها فترة طويلة جدًّا!»

وأضاف نيكلاوس، الذي وقف هو الآخر، لعدم قدرته على التزام مقعده: «طويلة جدًّا بحق!»

وردَّ الدكتور أوكس: «هذه الفترة الزمنية ضرورية لاستكمال عملنا؛ فالعمال الذين اضطُررنا إلى اختيارهم من كويكندن يفتقرون كثيرًا إلى السرعة.»

صاح العمدة الذي بدا أنه اعتبر العبارة إهانة شخصية: «يفتقرون إلى السرعة؟! كيف ذلك؟»

رد الدكتور أوكس بعناد: «هم ليسوا سراعًا يا سيد فان تريكاس؛ فالعامل الفرنسي يقوم في يوم واحد بما يقوم به عشرة من عمالك؛ فكما تعلم، إنهم فلمنجيون عاديُّون!»

صاح المستشار الذي تشابكت أصابعه معًا: «فلمنجيون! ماذا تقصد، يا سيدي، بهذه الكلمة؟»

أجاب الدكتور أوكس مبتسمًا: «أقصد المعنى الودِّي الذي يستخدمها به الجميع.»

ذرع العمدة الغرفة جيئة وذهابًا وقال: «حسنًا، ولكني لا أحب هذه التلميحات يا دكتور. ينبغي أن تعرف أن عُمال كويكندن أكفاء مثل عمال أي بلدة أخرى في العالم، ولن نذهب إلى باريس ولا لندن من أجل الاقتداء بهما! أما بالنسبة إلى مشروعك، فألتمس منك أن تسرع تنفيذه؛ فقد فسد رصف شوارعنا من أجل تمديد أنابيبك، وهذا يشكِّل عائقًا أمام حركة المرور. ستتأثر تجارتنا سلبيًّا، وبصفتي ممثلًا للسلطة المسئولة، لا أعتزم أن أجلب على نفسي تقريعات ستكون وقتها في محلها تمامًا.»

العمدة المبجَّل! تحدَّث عن التجارة، وحركة المرور، والعجيب أن تلك الكلمات، التي لم يكن معتادًا عليها تمامًا، لم تحرق شفتيه. ترى ماذا كان يجول بذهنه؟

أضاف نيكلاوس: «إلى جانب ذلك، لا يمكن حرمان البلدة من الإضاءة لفترة أطول من ذلك.»

عاجله الدكتور أوكس قائلًا: «لكن البلدة لم تنعم بالإضاءة على مدى ثمانمائة أو تسعمائة سنة.»

أجاب العمدة مشددًا على كلماته: «وهذا يزيد من ضرورة الإسراع. الزمن يتغير، والسلوكيات تتغير، والعالم يتقدم، ولا نرغب في التخلف عنه. نرغب في أن تُضاء شوارعنا

في غضون شهر، أو يجب أن تدفع تعويضًا كبيرًا عن كل يوم تأخير. وماذا لو حدثت مشاجرة ما وسط الظلام؟»

صاح نيكلاوس: «بلا شك. إن إثارة الفلمنجي لا تتطلب سوى شرارة بسيطة!»

قاطع العمدة صديقه قائلًا: «وبالمناسبة، أخبرنا المفوَّض باسوف، رئيس شرطتنا، أن مناقشة جرت في حفلك مساء أمس يا دكتور أوكس. هل كان مخطئًا في قوله إنها كانت مناقشة سياسية؟»

رد الدكتور أوكس: «على الإطلاق، سيدي العمدة.» وكتم بصعوبة تنهيدة ارتياح كادت تخرج من صدره.

«إذن حدثت مشاجرة بين دومينيك كوستوس وأندريه شوت؟»

«نعم أيها المستشار، ولكن الكلمات التي قيلت لم تكن ذات معنًى خطير.»

صاح العمدة: «ليست ذات معنًى خطير! ليست ذات معنًى خطير، عندما يقول رجل لآخر إنه لا ينتبه لألفاظه! أي نوع من البشر أنت يا سيدي؟ ألا تعلم أنه في كويكندن لا يلزم شيء أكثر من ذلك لوقوع نتائج كارثية للغاية؟ ولكن يا سيدي، لو أنك، أو أي شخص آخر، تجرأت أن تقول لي هذه العبارة …»

أضاف نيكلاوس: «أو لي.»

وبينما كان الرجلان يتفوهان بهذه الكلمات بنبرة تهديد، وقفا في مواجهة الدكتور أوكس، معقودَي الذراعين، على استعداد لاستعمال العنف، لو أنه أبدى أية نية لمعارضتهما، ولو بإيماءة أو بنظرة عين.

ولكن الدكتور لم يحرِّك ساكنًا.

واستطرد العمدة: «في جميع الأحوال أيها الدكتور، أعتزم اعتبارك مسئولًا عما يحدث في بيتك. إنني أتحمل مسئولية ضمان هدوء هذه البلدة، ولا أريدها أن تضطرب. يجب ألا تتكرر أحداث الليلة الماضية، أو سأقوم بما تحتمه عليَّ مهام منصبي، يا سيدي! هل تسمع؟ أجبني إذن يا سيدي.»

وبينما كان العمدة يتحدث — تحت تأثير استثارة غير عادية — رفع صوته بنبرة غضب. كان المبجل فان تريكاس غاضبًا، وربما سُمع صوته في الخارج بالتأكيد. وفي النهاية، وتحت وطأة الانفعال، ولما لم يرَ من الدكتور أوكس استجابةً لتحدِّيه، أردف: «هيا بنا يا نيكلاوس.»

وجذب صديقه خلفه ضاربًا الباب بعنف اهتزَّ له المكان.

ورويدًا رويدًا، بعدما قطَعَا حوالي عشرين خطوة في طريقهما، بدأ السيدان يستعيدان هدوءهما. فقلَّت سرعة خطواتهما، حتى أصبحت مشيتهما أقل انفعالًا. وتلاشت حمرة الغضب من وجهيهما؛ فتورَّد وجهاهما وزال اللون القرمزي عنهما. وبعد ربع ساعة من مغادرة مصنع الغاز، قال فان تريكاس بهدوء لنيكلاوس: «إن الدكتور أوكس رجل لطيف! ورؤيته دائمًا ما تبعث على السرور!»

الفصل السادس

وفيه يضع فرانتس نيكلاوس وسوزيل فان تريكاس مشاريع للمستقبل.

* * *

يَعرف قرَّاؤنا أن للعمدة ابنةً وهي سوزيل، ولكن رغم ذكائهم، فإنهم لا يستطيعون تخمين أن المستشار نيكلاوس لديه ابن يدعى فرانتس. وحتى لو استطاعوا تخمين هذا، فلا شيء يمكن أن يقودهم إلى تخيُّل أن فرانتس كان خطيب سوزيل ومحبوبها. وسنضيف أن هذين الشابين كأنما خُلق كلٌّ منهما للآخر، وأن كلًّا منهما يحب الآخر على طريقة أهل كويكندن.

لا ينبغي الاعتقاد أن قلوب الشباب لا تخفق بالحب في هذا المكان الاستثنائي، لكنها تعشق بتأنٍّ. كانت هناك زيجات في البلدة، كما هو الحال في كل بلدة أخرى في العالم، ولكنها تستغرق وقتًا طويلًا؛ فقد كان الخاطبون والمخطوبات — قبل الانخراط في هذه الروابط الرهيبة — يرغبون في دراسة كل طرف للطرف الآخر. وكانت هذه الدراسات تدوم عشر سنوات على الأقل، كما في الكلية. وكان من النادر «قبول» أي شخص قبل مرور هذه الفترة الزمنية.

نعم، عشر سنوات! تدوم الخطبة لعشر سنوات! ورغم كل شيء، أهي فترة طويلة للغاية عندما يكون هذا الارتباط مدى الحياة؟ إن المرء يدرس عشر سنوات ليصبح مهندسًا أو طبيبًا أو محاميًا، أينبغي إذن أن يقضي وقتًا أقل في اكتساب المعرفة من أجل الحصول على شريك حياة جيد؟ أيكون هذا معقولًا؟ وسواء كان هذا بسبب الطبع أو المنطق، فإنه يبدو لنا أن سكان كويكندن مُحقِّين في إطالة فترة الخطوبة. وعندما نرى الزيجات في المدن

الأخرى الأكثر حيوية وإثارة تتم في غضون بضعة أشهر، يجب أن نتعجب من ذلك، وأن نسرع في إرسال أولادنا إلى مدارس كويكندن وبناتنا إلى منازل كويكندن.

وعلى مدى نصف قرن، لم تحدث أية حالة زواج بعد مدة أقل إلا حالة واحدة تمت بعد عامين فقط من الخطبة، وتبيَّن أنه كان زواجًا فاشلًا!

إذن، أَحب فرانتس نيكلاوس سوزيل فان تريكاس، ولكن بهدوء، كما يحب الرجل عندما يكون أمامه عشر سنوات قبل الزواج من محبوبته. كان فرانتس يذهب لاصطحاب سوزيل مرة واحدة كل أسبوع، في ساعة متفق عليها، ويسيران معًا على طول ضفاف نهر فار. وكان حريصًا كل الحرص على أن يأخذ معه صنارة الصيد، ولا تنسى سوزيل قط أن تأخذ قماش الكنفاه معها، الذي تطرز عليه يداها الجميلتان أندر الزهور وأغربها.

كان فرانتس شابًّا في الثانية والعشرين من عمره، له وجنتان ناعمتان ممتلئتان، وكان صوته نادرًا ما يغطي نطاقَ نغمةِ جوابٍ واحدة/السلم الموسيقى.

أما سوزيل، فكانت شقراء مُشرقة، في السابعة عشرة من عمرها، ولم تكن تبغض الصيد؛ فهي مهنة فريدة تجبرك على التعامل بحِرَفية مع أسماك النهر، وكان فرانتس يحبها، وكانت هواية متوافقة مع طبعه؛ فقد كان يعرف كيفية الانتظار، بأكبر قدر من الصبر، وبسعادة نابعة من متابعة فلِّينة الصنارة التي تطفو على سطح الماء بعينيه الحالمتين. وبعد الجلوس لمدة ست ساعات، عندما توافق سمكة صغيرة أخيرًا على اصطيادها — شفقةً به — كان يشعر بالسعادة، ولكنه كان يعرف كيف يسيطر على مشاعره.

كان العاشقان — أو بالأحرى الخطيبان — جالسين على ضفة النهر الخضراء. وكانت مياه النهر الصافية تتدفق بخريرها الرقيق على بُعد أقدام قليلة أسفل منهما. كانت سوزيل تمرِّر الإبرة بهدوء عبر قماشها، وكان فرانتس ينقل صنارته من اليسار إلى اليمين تلقائيًّا، ثم يسمح لها بالتحرك مع التيار من اليمين إلى اليسار. وكانت الأسماك تصنع دوائر متفرقة في الماء، تتقاطع معًا حول الفلينة، بينما يبقى الخطاف معلقًا بلا فائدة بالقرب من القاع.

كان فرانتس من وقت لآخر يقول دون رفع عينيه:

«أظنُّ أن سمكة قد ابتلعت الطعم يا سوزيل.»

فتردُّ سوزيل قائلة: «هل تظنُّ ذلك حقًّا يا فرانتس؟» وتترك عملها للحظة وتتابع صنارة حبيبها بانتباه.

يستطرد فرانتس: «لا، كنت أحسب أنني شعرت بجذبٍ بسيطٍ مفاجئ، ولكني كنت مخطئًا.»

قالت سوزيل بصوتها الصافي الناعم: «ستحظى بصيد يا فرانتس، ولكن لا تنسَ أن تسحب الخيط في اللحظة المناسبة؛ فأنت دائمًا ما تتأخر بضع ثوانٍ، وتنتهز السمكة الفرصة وتهرب.»

«هل تودِّين أن تأخذي صنارتي يا سوزيل؟»

«بكل سرور يا فرانتس.»

«إذن أعطيني قماشك، وسنرى ما إذا كنتُ أكثر براعة في استخدام الإبرة من استخدام الخطاف.»

أخذت الفتاة الصنارة بيدٍ مرتجفة، بينما مرَّر حبيبها الإبرة عبر غرز التطريز. كانا يتبادلان الكلمات الرقيقة لعدة ساعات معًا، وكان قلباهما يخفقان عندما تتمايل الفلينة فوق الماء. آه، هل يمكن أن ينسيا أبدًا تلك الساعات الساحرة، التي جلسا خلالها جنبًا إلى جنب يستمعان إلى خرير النهر؟

كانت الشمس تقترب سريعًا نحو الأفق الغربي، وعلى الرغم من اجتماع مهارة سوزيل وفرانتس، لم يحظيا بأي صيد؛ فقدْ أبَى السمك اصطياده، وراح يهزأ بالشابين، اللذين كانا أرقى من أن يُكنَّا له أيَّ شرٍّ.

قالت سوزيل بينما كان الصياد الشاب يحمل صنارته التي لم تزل عذراء لم تصطد شيئًا: «سيبتسم لنا الحظ في وقت آخر يا فرانتس.»

ردَّ فرانتس: «آمل ذلك.»

ثم سارا جنبًا إلى جنب وانعطفت خطاهما نحو المنزل، دون تبادل كلمة واحدة، صامتَيْن كظلَّيْهما الممتدَّين أمامهما. كان ظل سوزيل طويلًا للغاية تحت الأشعة المائلة للشمس المشارفة على الغروب، وبدا ظل فرانتس رفيعًا للغاية مثل الصنارة الطويلة التي كان يحملها في يده.

وصل الشابان إلى منزل العمدة. ثمة أَجَمة خضراء من العشب كانت تحيط بالرصيف الزاهي، ولم يفكر أحد في تشذيبها؛ لأنها كانت تُخمد الضجيج الذي يسببه المارة.

وبينما كانا على وشك فتح الباب، اعتقد فرانتس أن من واجبه أن يقول لسوزيل:

«أتعرفين يا سوزيل، إن يومنا المرتقب يقترب.»

أجابت الفتاة بعينين ملؤهما الخجل: «بالفعل يا فرانتس؟»

استطرد فرانتس: «نعم، في غضون خمس أو ست سنوات.»
قالت سوزيل: «وداعًا فرانتس.»
فأجابها فرانتس: «وداعًا سوزيل.»
وبعد أن أُغلق الباب، استأنف الشاب الطريق إلى بيت والده بوتيرة هادئة منتظمة.

الفصل السابع

وفيه يتحول النغم البطيء إلى سريع، وينتقل السريع إلى الجموح.

* * *

انحسرت حالة الهياج والإثارة التي تسببت فيها مشكلة شوت وكوستوس، دون أن تؤدي إلى عواقب وخيمة. وبدا على الأرجح أن كويكندن ستعود إلى خمولها المعتاد، الذي كدَّره للحظات هذا الحدث غير المتوقع.

في الوقت نفسه، كان مد الأنابيب اللازمة لتوصيل غاز الأوكسيهيدريك إلى المنشآت الرئيسية في البلدة يسير بسرعة. وامتدت الأنابيب الرئيسية والفرعية تدريجيًّا تحت الأرصفة. ولكن المشاعل لم تكن متوافرة بعدُ؛ لأنها تتطلب مهارة دقيقة في التصنيع، وكان ضروريًّا أن تُصنع في الخارج. كان الدكتور أوكس متواجدًا في كل مكان، ولم يُضيِّع هو ولا مساعده إيجين لحظةً واحدة، إلا وكانا يحثان العمال على السرعة، وينهيان ضبط آلية مقياس الغاز الحساسة، وتغذية البطاريات الضخمة ليلًا ونهارًا والتي تحلل المياه باستخدام تيار كهربائي قوي. نعم، كان الطبيب يصنع غازه بالفعل، رغم أن مد الأنابيب لم يكتمل بعد؛ وهي حقيقة ربما تبدو — فيما بيننا — غريبة بعض الشيء. ولكن لن يمر وقت طويل — على الأقل كان يوجد سبب لنأمل ذلك — قبل أن يدشن الدكتور أوكس اختراعه الرائع في مسرح البلدة.

كانت بلدة كويكندن تمتلك مسرحًا — بل صرحًا رائعًا حقًّا — يجمع نسقُه الداخلي والخارجي بين كل أنماط العمارة؛ فقد كان يجمع بين العمارة البيزنطية، والرومانية، والقوطية، والنهضوية في وقت واحد، مع أبواب نصف دائرية، ونوافذ ذات أقواس بارزة، ونوافذ قوطية مستديرة مشرقة، وأبراج أجراس رائعة. باختصار، كان نموذجًا يجمع كل

شيء؛ نصف بارثينون ونصف مطعم باريسي ضخم. وليس مفاجئًا أن بناء هذا المسرح بدأ في عهد العمدة لودفيج فان تريكاس في ١١٧٥، وانتهى في عام ١٨٣٧ في عهد العمدة ناتاليس فان تريكاس؛ ما يعني أن بناءه قد استغرق نحو سبعمائة سنة، وخضع على نحو متتابع للنمط المعماري الرائج في كل فترة، ولكنه — رغم ذلك — كان بناءً مهيبًا، وبدا أن أعمدته الرومانية وأقواسه البيزنطية ستضاء بغاز الأوكسيهيدريك على نحو مميز.

كان كل شيء يؤدَّى في مسرح كويكندن رائعًا للغاية، ولكن الأوبرا والأوبرا الكوميدية كانتا تَلقَيان رعاية خاصة. ومع ذلك، يجب أن نضيف أن «الحركات» الموسيقية كانت تتغير تمامًا، لدرجة أن مؤلفيها لا يستطيعون التعرف على أعمالهم.

باختصار، كما أن كل شيء يسير بطيئًا في كويكندن، كان لا بد أن تُؤدى المسرحيات الدرامية في تناغم مع الطباع الغريبة لسكان كويكندن. وعلى الرغم من أن أبواب المسرح كانت تُفتح بانتظام في الساعة الرابعة وتُغلق مرة أخرى في العاشرة، لم يحدث قطُّ أن عُرض أكثر من فصلين خلال هذه الساعات الست. وعادة ما كان يستغرق أداء «روبير الشيطان»، أو أوبرا «الهوجونوت» أو «ويليام تيل» ثلاث أمسيات؛ إذ كان أداء هذه الروائع بطيئًا للغاية. كانت الموسيقى السريعة الإيقاع في مسرح كويكندن بطيئة مثل الموسيقى الحقيقية ذات الإيقاع البطيء، وكانت الموسيقى السريعة تمتد لفترات طويلة بالفعل. وقلَّما كانت النغمات الثلاثية الأسنان تساوي النغمات الموسيقية الطويلة المعتادة في البلدان الأخرى. وكانت أسرع الأغاني إيقاعًا تتخذ الإيقاع البطيء الرصين للأنشودة؛ إذ كانت تؤدَّى كذلك وفقًا لذوق أهل كويكندن. كانت أنشط الحركات فاترة وبطيئة، لدرجة أنها ربما تصدم آذان المحبِّين لها. على سبيل المثال، استغرقت الأغنية السريعة التي يغنيها فيجارو في مشهده الافتتاحي في الفصل الأول من أوبرا «حلاق إشبيلية» ثمانيًا وخمسين دقيقة؛ عندما كان الممثل متحمسًا للغاية.

كان الفنانون القادمون من الخارج — كما هو مفترض — مضطرين إلى التوافق مع طريقة أهل كويكندن، ولكن لأنهم كان يُدفع لهم بسخاء، لم يشتكوا من ذلك، وامتثلوا طوعًا لقائد الفرقة، الذي لم يعزف قط أكثر من ثماني موازير في الدقيقة في المقطوعات الموسيقية السريعة.

ولكن يا لَلتصفيق الذي لقيه هؤلاء الفنانون الذين سحروا جماهير كويكندن دون إرهاقهم! كانت كل الأيادي تصفق واحدة تلو الأخرى على فترات طويلة على نحو مقبول، فيما وصفته الصحف بأنه «تصفيق حار»؛ وفي بعض الأحيان لم يكن يحُول دون سقوط

سقف القاعة، من حدة التصفيق، إلا القدر المفرط من الحجارة والملاط الذي استُخدم في القرن الثاني عشر.

إضافة إلى ذلك، كان المسرح يقدِّم عرضًا واحدًا فقط في الأسبوع، لئلا يتحمس هؤلاء الفلمنجيون أكثر من اللازم، مما مكَّن الممثلين من دراسة أدوارهم على نحو أكثر عمقًا ودقة، ومكَّن المشاهدين من استيعاب المزيد من جماليات هذه الروائع بتمهُّل.

هكذا كانت الدراما منذ زمن بعيد في كويكندن. وكان من عادة الفنانين الأجانب التعاقد مع مخرج البلدة، عندما يرغبون في التماس بعض الراحة بعد مجهوداتهم في العروض الأخرى؛ وبدا وكأن لا شيء يمكن أن يغير هذه العادات الراسخة، ومع ذلك وقع حادث غير متوقع ليلقي بسكان كويكندن في موجة جديدة من الاستثارة، بعد أسبوعين من مشكلة شوت-كوستوس.

كان يوم سبت، وهو يوم عرض الأوبرا. ولم يكن مزمعًا بعدُ — كما هو مفترض — افتتاح الإضاءة الجديدة فيه. لا، لقد وصلت الأنابيب إلى القاعة بالفعل، ولكن للأسباب المذكورة سابقًا، لم تُوضع المشاعل بعدُ، ولا تزال الشموع تُلقي ضوءها الرقيق على المشاهدين الكُثر الذين ملئوا المسرح. فُتِحت أبواب المسرح أمام الجمهور في الساعة الواحدة، وفي الساعة الثالثة كان نصف القاعة قد امتلأ. تشكَّل طابور في ذلك الوقت، امتد حتى نهاية ساحة سانت إرنوف، أمام متجر جوس ليترينك الصيدلي. كان هذا الحماس يشير إلى عرضٍ جذاب على نحو غير عادي.

سأل المستشارُ في نفس الصباح العمدة قائلًا: «هل ستذهب إلى المسرح هذا المساء؟»

أجاب فان تريكاس: «بالطبع سأذهب، وسأصطحب معي السيدة فان تريكاس، وكذلك ابنتنا سوزيل وعزيزتنا تاتانمانس؛ فهن جميعًا شغوفات بالموسيقى الجيدة.»

«إذن ستذهب الآنسة سوزيل؟»

«بالتأكيد يا نيكلاوس.»

قال نيكلاوس: «إذن سيكون ابني فرانتس من أوائل الوافدين على المسرح.»

قال العمدة بأسلوب ناقد: «إنه صبي مفعم بالحيوية يا نيكلاوس، ولكنه متهور! سيتطلب رقابة!»

«إنه واقع في الحب يا فان تريكاس، يحب ابنتك الفاتنة سوزيل.»

«حسنًا يا نيكلاوس، سوف يتزوجها، والآن بعد أن اتفقنا على هذا الزواج، ماذا عساه أن يريد أيضًا؟»

«إن المسكين لا يريد شيئًا يا فان تريكاس! ولكن باختصار ... لن نتحدث عن هذا الأمر أكثر من ذلك؛ لن يكون آخر مَن يحصل على تذكرة من شباك التذاكر.»

قال العمدة، مسترجعًا ماضيه: «آه، يا لحماس الشباب وحيويتهم! لقد كنا كذلك أيضًا أيها المستشار المبجل! نحن أيضًا وقعنا في الحب! وحضرنا حفلات راقصة في عصرنا! حتى الليل، ثم، حتى الليل! بالمناسبة، هل تعرف أن فيوفارانتي فنان عظيم؟ ويا له من احتفاءٍ تلقَّاه بيننا! لن ينسى أبدًا تصفيق أهل كويكندن!»

في الواقع، كان المطرب الأوبرالي فيوفارانتي سيُغنِّي؛ فيوفارانتي الذي أشعل حماسًا حقيقيًّا بين عشاق الموسيقى في البلدة بمواهبه كفنان مبدع، بأسلوبه المثالي، وصوته الرخيم الشجي.

حقَّق فيوفارانتي، على مدى ثلاثة أسابيع، نجاحًا باهرًا في أوبرا «الهوجونوت». وامتد أول فصل لأمسية كاملة من الأسبوع الأول من الشهر، بعد أدائه وفقًا لذوق أهل كويكندن. وأثارت أمسية أخرى في الأسبوع الثاني — طالت بسبب العزف الموسيقي البطيء — عاصفة من التصفيق الحار والإشادة بالمغني الشهير. ويظل نجاحه في أداء الفصل الثالث من رائعة مايربير هو الأبرز. ولكن كان فيوفارانتي سيظهر في الفصل الرابع، الذي كان من المقرر أن يُقدَّم في ذلك المساء أمام جمهور متعطش. آه، اللحن الثنائي بين راءول وفالانتاين، أغنية الحب الحزينة تلك التي يؤديها اثنان، الأغنية المليئة بالتصعيدات والتشديدات والتصعيدات الإضافية؛ كل هذا سيُغنَّى ببطء، وبتتابُع، وبلا نهاية! آه، يا لها من متعة!

في الساعة الرابعة كانت القاعة ممتلئة عن آخرها، كانت المقصورات، ومكان الأوركسترا، ومقاعد الفرقة الموسيقية تفيض بالناس. وفي المقاعد الأمامية جلس العمدة فان تريكاس، والآنسة فان تريكاس، والسيدة فان تريكاس، وتاتانمانس اللطيفة الودودة مرتدية قلنسوة خضراء، وعلى مسافة غير بعيدة جلس المستشار نيكلاوس وأسرته، ولا ننسى فرانتس العاشق. سلبت الموسيقى الألمانيةُ عقولَ أُسر الطبيب كوستوس، والمحامي شوت، ورئيس المحكمة أونري سينتاكس، ومدير التأمين نوربيت سونتمان، والمصرفي كولار، والمعلم روب — الذي كان هو نفسه من المطربين الهواة إلى حد ما — ورئيس الأكاديمية جيروم ريش والمفوض المدني، وحضر كثيرون آخرون من أعيان البلدة في أنحاء القاعة، حتى إنه لا يمكن ذكرهم هنا دون إصابة القارئ بالضجر.

كان من المعتاد لأهل كويكندن أثناء انتظار رفع الستار الجلوس في صمت، والبعض يطالع الصحف، والبعض الآخر يتحدث أحدهم إلى الآخر بهمس، ويتوجَّه آخرون إلى

مقاعدهم ببطء وبهدوء، فيما يُلقي آخرون نظرات خجولة على الحسناوات الساحرات في شرفات المسرح.

ولكن في هذا المساء، ربما كان بمقدور أي متفرج أن يلاحظ حركة غير عادية بين الجمهور، حتى قبل رفع الستار. كان الناس يتملْملون، وهم الذين لم يعرف التململ إليهم سبيلًا من قبلُ. كانت مراوح السيدات ترفرف بسرعة غير طبيعية، وبدا أن الجميع يستنشقون هواءً به قوة منشِّطة استثنائية. كان كل واحد يتنفس بمزيد من الحرية، ولمعت عيون بعضهم على نحو غريب، وبدت تشعُّ ضوءًا مساويًا لضوء الشموع، التي أضفت بالتأكيد ضوءًا أكثر إشراقًا على القاعة. كان واضحًا أن الناس يروْن بوضوح أكبر، رغم أن عدد الشموع لم يزد. آه، لو أن تجربة الدكتور أوكس قيد التنفيذ! ولكنها لم تصبح قيد التنفيذ بعدُ.

اتخذ أفراد الفرقة الموسيقية أماكنهم أخيرًا. وتقدَّم أول عازف كمان إلى خشبة المسرح ليعزف نغمة «لا» متوسطة لزملائه. وكانت الآلات الوترية، وآلات النفخ، والطبول، والصنج في تناغم. ولم يكن قائد الفرقة الموسيقية ينتظر إلا صوت الجرس ليبدأ عزف أول فاصلة موسيقية.

دق الجرس، وبدأ الفصل الرابع. عُزفت مقطوعة وسط الفصل كالمعتاد، بتأنٍّ مهيب من شأنه أن يثير هياج مايربير، وكان هذا العزف الذي تميَّز بالفخامة والعظمة موضع تقدير من قِبل المعجبين من سكان كويكندن.

ولكن سرعان ما أدرك القائد أنه لم يعُد قائدًا لعازفيه؛ فوجد صعوبة في كبح جماحهم، رغم أنهم في العادة مطيعون وهادئون. أظهر عازفو آلات النفخ الموسيقية ميلًا نحو تعجيل الحركات، وكان من الضروري إعادتهم بإشارات قوية؛ لأنهم بذلك سيتخطَّون عازفي الآلات الوترية، وهو ما سيمثل كارثة من وجهة النظر الموسيقية. حتى عازف المزمار نفسه — ذلك الشاب المهذب ابن جوس ليترينك الصيدلي — بدا فاقدًا لضبط النفس.

في غضون ذلك بدأت فالانتاين إلقاءها الأوبرالي «أنا وحدي» وما إلى ذلك، ولكنها كانت متعجلة.

واتبعها القائد وجميع عازفيه — ربما دون وعي — في «أسلوبها الغنائي»، والذي كان ينبغي أن يكون بطيئًا، وفقًا للميزان الموسيقي ١٢ / ٨. يظهر راءول عند الباب في الجزء السفلي من المسرح، ولا يمر ربع ساعة بين اللحظة التي ذهبت فيها فالانتاين إليه، ولحظة إخفاء نفسها في غرفة في الجانب؛ بينما كان في السابق، وفقًا لتقاليد المسرح في كويكندن،

يستمر هذا الإلقاء الأوبرالي — المكوَّن في السابق من سبعٍ وثلاثين فاصلة موسيقية — لسبع وثلاثين دقيقة.

ظهرت شخصيات سانت بريس، ونيفرز، وكافانس، والنبلاء الكاثوليكيين على المسرح قبل الأوان إلى حد ما. أشار الملحن بعزف الموسيقى بطريقة سريعة مهيبة على النوتة الموسيقية، فعزفت الفرقة الموسيقية بالفعل على نحوٍ سريع، ولكنه لم يكن مهيبًا على الإطلاق، وبالنسبة إلى الكورس، ففي مشهد «تبريك الخناجر» الشهير في العرض الأوبرالي، لا يلتزمون بالغناء السريع المفروض؛ بل ينفصل المغنُّون والموسيقيون بتعجل. ولا يحاول قائد الفرقة حتى كبح جماحهم، ولا يعترض الجمهور أيضًا؛ بل على العكس من ذلك، يجد الجمهور أنفسهم متحمسين، ويرون أنهم منخرطون في الحركة، وأن هذه الحركة تأتي استجابة لبواعث نابعة من أرواحهم.

هل ستُحرِّرون، معي، الأرض
من المتاعب المتزايدة، وتلك العصابة المجرمة؟

فيَعِدون، ويُقسِمون. ولا يجد نيفرز وقتًا كافيًا لكي يحتجَّ ويغني قائلًا إنه «كان بين أسلافه العديد من الجنود، ولكن لم يكن بينهم قاتل قطُّ.» فيُلقَى القبض عليه. ويسرع رجال الشرطة والحكومة مندفعين ويُقسِمون بسرعة بأن «يضربوا جميعًا ضربة رجل واحد.» ويصرخ سانت بريس بعباراته الإلقائية المنغمة التي يدعو فيها الكاثوليكيين إلى الانتقام. يندفع الرهبان الثلاثة مسرعين بأوشحتهم البيضاء من الباب الموجود في الجزء الخلفي من غرفة نيفرز، دون مراعاة توجيهات المسرح، التي تفرض عليهم التقدم ببطء. كان كل الممثلين بالفعل قد سحبوا السيوف أو الخناجر، التي باركها الرهبان الثلاثة في لمح البصر. واندفع مطربو التينور، والسوبرانو، والباص بصرخات غاضبة، وحوَّلوا الميزان الموسيقي ٦ / ٨ الدراماتيكي إلى ميزان ٢ / ٤ رباعي راقص. ثم اندفعوا يغنون:

في منتصف الليل
في هدوء
كما يشاء الرب
نعم
في منتصف الليل.

في هذه اللحظة بدأ الجمهور في الوقوف. كان الجميع مهتاجًا؛ في المقصورات والبلكون والصالة. بدا كما لو أن الجمهور على وشك الاندفاع نحو خشبة المسرح — وعلى رأسهم العمدة فان تريكاس — من أجل الانضمام إلى المتآمرين وإبادة الهوجونوت، الذين يشاركونهم آراءهم الدينية على الرغم من ذلك. فصفقوا ونادوا على الممثلين للخروج من وراء الستار وهللوا بصوت عالٍ! وأمسكت تاتانمانس قلنسوتها بيد مرتعشة من الانفعال. وأطلقت الشموع ضوءًا متوهِّجًا صارخًا.

أما راءول، فبدلًا من رفع الستارة ببطء، إذا به يمزِّقها بحركة قوية بيده ويجد نفسه في مواجهة فالانتاين.

أخيرًا! ها هو الثنائي الكبير، وبدأ الثنائي بإيقاع سريع نشط؛ فلا ينتظر راءول التماسات فالانتاين، ولا تنتظر فالانتاين ردود راءول.

يتحول المقطع الرقيق الذي يبدأ بجملة «الخطر يمر، والوقت يتبدد سريعًا» إلى مقطع من تلك الألحان السريعة التي كانت سببًا في شهرة أوفنباخ، عندما ألَّف رقصة للمتآمرين. ويصبح المقطع الرقيق المتوسط «لقد قلت ذلك، نعم، قلت إنك تحبني» مقطعًا سريعًا للغاية، ويتوقف عازف التشيلو عن محاكاة التغيرات في طبقة صوت المغنية، كما هو مبيَّن في نوتة الملحن. ويصرخ راءول عبثًا: «تحدَّثي، وأطيلي سكون روحي الشديد.» فلا تستطيع فالانتاين «الإطالة». كان من الواضح أن حماسًا غير معتاد يجتاحها، فكانت كل نغماتها من b وc فوق المدرج الموسيقي عالية على نحو رهيب. وكان هو يكافح، كان يومئ، وكان متَّقدًا من شدة الانفعال.

يُسمع صوت الجرس. ويرجع صداه ثانية. ولكن يا له من جرسٍ لاهث! من الواضح أن المسئول عن الجرس فقد سيطرته على نفسه. إنه ناقوسُ خطرٍ مخيف يكافح بعنف ضد غضب الفرقة الموسيقية.

وأخيرًا يتحول لحن الختام لهذا الفصل الرائع، والذي يبدأ بعبارة «لا مزيد من الحب، ولا مزيد من الثمالة، يا للندم الذي يعتصرني!» والذي يشير الملحن أنه لحنٌ متوسط السرعة مصحوب بحركة، ليصبح لحنًا سريعًا إلى حد الجموح. لعلك كنت ستعتقد أن قطارًا سريعًا ينطلق بجوارك كالإعصار، يرن الجرس مرة أخرى. وتسقط فالانتاين فاقدة الوعي، ويلقى راءول بنفسه من النافذة.

وأخيرًا في الوقت المناسب. كانت الفرقة الموسيقية منهكة تمامًا، ولم تستطع الاستمرار. ولم تعُدْ عصا قائد الفرقة إلا عصًا مكسورةً على مقصورة الملقِّن. وقُطعت أوتار الكمان،

ولُويت أعناقها. وفي خضمِّ غضبه، مزَّق الطبال طبلته. وجلس عازف الكونترباص على قمة آلته الموسيقية. وابتلع عازف المزمار الأول قصبة آلته، ومضغ عازف الأوبوا الثاني مفاتيح آلته، والتوى أخدود الترومبون، وأخيرًا لم يستطع نافخ البوق البائس رفع يده عن صمام بوقه، حتى إنه حشرها بداخله حشرًا.

أما الجمهور، فكان يلهث بحرارة ويلوح ويصرخ. كانت كل الوجوه تشعُّ وهجًا أحمر كما لو أن نارًا مستعرة داخل الأجساد. كانوا يتدافعون، ودفع بعضهم بعضًا بقوة من أجل الخروج؛ الرجال دون قبعات، والنساء دون معاطف! كان كل منهم يدفع الآخر في الممرات بمرفقه، ويحتشدون عند الأبواب، ويتشاجرون، ويتلاكمون! لم يعُد هناك وجود لأي مسئول، ولا أي عمدة. كانوا جميعًا سواءً وسطَ هذا الجنون الشيطاني!

وبعد لحظات، عندما وصل الجميع إلى الشارع، استأنف كل واحد منهم هدوءه المعتاد، ودخل منزله بسلام، حاملًا ذكرى مشوشة لما شهده للتوِّ.

لقد بدأ الفصل الرابع من أوبرا «الهوجونوت» — الذي كان في السابق يستمر ست ساعات — في الرابعة والنصف في هذا المساء، وانتهى قبل الساعة الخامسة باثنتي عشرة دقيقة.

لم يدُم سوى ثماني عشرة دقيقة!

الفصل الثامن

وفيه تتحول رقصة الفالس الألمانية القديمة الوقورة إلى رقصةٍ هوجاء.

* * *

ولكن إذا كان المتفرجون، عند مغادرتهم المسرح، قد عادوا إلى هدوئهم المعتاد، وعادوا بهدوء إلى منازلهم، دون أن يتبقى لديهم إلا نوع من الذهول العابر، فقد مروا، على الرغم من ذلك، بحالة من النشاط المفرط، والإنهاك والإرهاق كما لو أنهم أسرفوا في العربدة والملذات، وغطوا في نوم عميق.

في اليوم التالي كان كل شخص في كويكندن يحوز ذكرى ما لما حدث مساء أمس. فمنهم من فقد قبعته وسط الصخب، وقُطع معطف آخر في العراك، وفقدت إحداهن حذاءها المتقن الصنع، وفقدت أخرى عباءتها المفضلة. عادت الذاكرة إلى هؤلاء الوجهاء، ومعها شعور بالخزي بسبب اهتياجهم الذي لا مبرر له. بدا الأمر كما لو كانت عربدة كانوا هم أبطالها وبطلاتها دون وعي. لم يتحدثوا عن ذلك؛ بل لم يرغبوا في التفكير فيه. لكن كان أكثر الأشخاص ذهولًا في البلدة هو العمدة فان تريكاس.

عندما استيقظ في الصباح التالي، لم يستطع العثور على شعره المستعار. بحثت لوتشيه في كل مكان، ولكن بلا طائل. لقد سقط الشعر المستعار في ميدان المعركة. وبالنسبة إلى البحث عنه عن طريق منادي البلدة جان ميسترول، لا، هذا لا يليق. كان الأفضل أن يفقد شعره المستعار من أن يعلن أنه يرتدي شعرًا مستعارًا؛ إذ كان يفخر دائمًا بكونه الحاكم الأول في كويكندن.

كان فان تريكاس المبجَّل يفكر في هذا مستلقيًا في فراشه بجسد مليء بالكدمات، ورأس ثقيل، ولسان أبيض، وصدر ملتهب. لم تكن لديه رغبة في النهوض، وعمل عقله خلال هذا

الصباح ربما أكثر مما عمل خلال الأربعين عامًا الماضية. استعاد الحاكم المبجل في ذهنه جميع الأحداث التي جرت خلال ذلك العرض غير المفهوم، وربطها بالأحداث التي وقعت قبل وقت قصير في حفل الدكتور أوكس. وحاول أن يكتشف أسباب الاستثارة الغريبة التي ظهرت لدى نخبة مواطني البلدة في مناسبتين.

سأل نفسه: «ما الذي يحدث؟ أي روح شريرة التي استحوذت على بلدتي المسالمة كويكندن؟ هل سنصاب جميعًا بالجنون، وعلينا أن نجعل البلدة مصحَّة كبيرة للأمراض العقلية؟ بالأمس كنا جميعًا هناك؛ الأعيان، والمستشارون، والقضاة، والمحامون، والأطباء، والمدرسون، وإذا أسعفتني ذاكرتي، فقد أُصبنا جميعًا بهذا الحمق الغاضب المفرط! ولكن ماذا كان في تلك الموسيقى الجهنمية؟ هذا أمر لا يمكن تفسيره! ولكني بالتأكيد لم آكل أو أشرب شيئًا يمكن أن يجعلني في مثل هذه الحالة. لا؛ لقد تناولت أمس في العشاء شريحة من لحم العجل المطهوِّ جيدًا، وعدة ملاعق من السبانخ مع السكر، وبيضًا، وقليلًا من الجعة والماء؛ شيء لا يدخل العقل! كلا! ثمة شيء لا أستطيع تفسيره؛ وبما أنني في النهاية مسئول عن سلوك المواطنين، فسأُجري تحقيقًا.»

غير أن التحقيق، رغم إقراره من مجلس البلدة، لم يسفر عن أي نتيجة. فإذا كانت الحقائق واضحة، فإن الأسباب تفلَّتت من فطنة وفراسة القضاء. إلى جانب ذلك، كان الهدوء قد عاد إلى العقل العام، ومع الهدوء، دخلت كل المشاهد الغريبة التي حدثت في المسرح في طي النسيان. وتجنَّبت الصحف التحدث عنها، ولم يُشر الخبر الخاص بالعرض المسرحي الذي ظهر في الجريدة الرسمية للبلدة إلى حالة غياب الوعي هذه التي أصابت الجمهور بأكمله.

وفي الوقت نفسه، وعلى الرغم من أن البلدة قد استعادت الهدوء المعتاد، وعادت فلمنجية، ظاهريًّا، كما كانت من قبلُ، كان من الملاحظ أن شخصية السكان وحالتهم المزاجية في الواقع تغيرت شيئًا فشيئًا. ربما يكون المرء مُحقًّا لو اتفق مع الطبيب دومينيك كوستوس في أن «أعصابهم تأثرت».

دعنا نوضح ذلك. لم يحدث هذا التغيير الأكيد إلا في ظل ظروف معينة؛ فعندما كان سكان كويكندن يسيرون في شوارع البلدة، أو في الميادين، أو على شاطئ نهر فار، طالما كانوا أشخاصًا هادئين ومنهجيين في الأيام السابقة. كذلك الحال عندما يبقون في المنازل، فبعضهم يعمل بيديه، وبعضهم يعمل بعقله — فلا هؤلاء يفعلون شيئًا، ولا أولئك يفكرون في شيء — كانت حياتهم الخاصة هادئة وخاملة وفارغة كما كانت من قبلُ. لا نزاعات، ولا

مشاجرات منزلية، ولا تسارُع في ضربات القلب، ولا إثارة للعقل. وظل متوسط نبضات قلوبهم كما كان في الماضي، من خمسين إلى اثنين وخمسين نبضة في الدقيقة.

ولكن، برغم غرابة الظاهرة وصعوبة تفسيرها، حتى إنها كانت ستتحدى فراسة أبرع علماء الفسيولوجيا في ذلك الوقت، فإذا كان سكان كويكندن لم يتغيروا في حياتهم المنزلية، فقد طرأ تغير على حياتهم المدنية وعلى علاقاتهم البينية، التي تنشأ عنها.

إذا اجتمعوا في مكانٍ عام، لا تسير الأمور «على ما يرام»، بحسب تعبير المفوَّض باسوف؛ ففي البورصة، وفي دار البلدية، وفي مدرج الأكاديمية، وفي جلسات المجلس، وكذلك في اجتماعات العلماء، يستحوذ هياج غريب على المواطنين المجتمعين. وتصبح علاقة أحدهم بالآخر مُخزية قبل أن يمضي على اجتماعهم معًا ساعة، وفي غضون ساعتين تتحول المناقشة إلى نزاع غاضب؛ فتمتلئ الرءوس غضبًا، وتُستخدَم العبارات المُهينة. وحتى في الكنيسة خلال الموعظة، لم يتمكن الحاضرون من الاستماع إلى القس فان ستابيل بصبر؛ فاندفع نحو المنبر وألقى موعظة على الحاضرين بصرامة فاقت صرامته المعتادة بكثير. وفي النهاية، تسببت هذه الأشياء في مشاحنات أكثر خطورة — للأسف — من المشاحنة التي حدثت بين كوستوس وشوت، ولكنها لم تتطلَّب تدخُّل السلطات؛ ذلك لأن الخصوم، بعد عودتهم إلى ديارهم وهدوئها، كانوا ينسون الإساءات التي تبادلوها فيما بينهم.

لم تكن هذه العقول قادرة على ملاحظة هذه الأمور الغريبة؛ فقد كانت عاجزة تمامًا عن إدراك ما كان يحدث بداخلهم. شخص واحد فقط في البلدة هو من لاحظ هذا الاهتياج، وهو الذي كان مجلس البلدة يفكِّر في إلغاء منصبه على مدار ثلاثين عامًا: مايكل باسوف. لاحظ باسوف أن هذا الاهتياج كان غائبًا عن المنازل الخاصة، ويحدث بسرعة في الأماكن العامة؛ وسأل نفسه، بدرجة من القلق ما الذي سيحدث إذا انتشرت هذه العدوى في المنازل، وإذا انتشر هذا الوباء — هذه هي الكلمة التي استخدمها — في شوارع البلدة. لا مزيد من النسيان للإساءات، لا مزيد من الهدوء، لا توقف لهذا الاهتياج؛ بل هياج دائم سيؤدي حتمًا إلى اصطدام سكان كويكندن بعضهم مع البعض.

سأل المفوَّض باسوف نفسه مرتعبًا: «ماذا سيحدث إذن؟ كيف يمكن القبض على هؤلاء الهمجيين الغاضبين؟ كيف يمكن كبح هذه الطباع الشريرة؟ لن يعود عملي سهلًا بعد الآن، وسيضطر المجلس لمضاعفة راتبي؛ وإلا سيعتقلني أنا شخصيًّا، للإضرار بالسلم العام!»

وبدأت هذه المخاوف المنطقية للغاية تتحقق، وانتقلت العدوى من البورصة والمسرح والكنيسة وقاعة البلدة والأكاديمية والسوق إلى المنازل الخاصة، وذلك في غضون أقل من أسبوعين بعد الأداء الرهيب لأوبرا «الهوجونوت».

وظهرت أول أعراضها في بيت المصرفي كولار.

أقام ذلك الشخص الموسر حفلًا راقصًا لأعيان البلدة. فقبْل بضعة أشهر، مَنح قرضًا قدره ثلاثين ألف فرنك، وتم تغطية ثلاثة أرباعه، واحتفالًا بهذا النجاح المالي، فتح قاعات الاستقبال في منزله وأقام حفلًا لأصدقائه.

يعلم الجميع أن الحفلات الفلمنجية بريئة وهادئة بما فيه الكفاية، وعادة ما تذهب التكلفة الأساسية فيها إلى الجعة والعصائر. ويدور بعض الأحاديث عن الطقس، ونمو المحاصيل، وحالة الحدائق الجيدة، والعناية بالزهور، وخاصة زهور التيوليب، مع رقصة بطيئة ومتأنية، من وقت لآخر، ربما رقصة المينيويت، وأحيانًا رقصة الفالس، ولكنها نوع من رقصات الفالس الألمانية تُكمل دورة ونصفًا في الدقيقة الواحدة، ويبتعد خلالها الراقصون كلٌّ منهم عن الآخر بقدر ما تسمح أذرعهم؛ تلك هي سمة الحفلات التي يحضرها المجتمع الأرستقراطي في كويكندن. وقد حاولوا الاعتياد على رقصة البولكا بعد تقصيرها إلى نصف عدد الخطوات، ولكن الراقصين دائمًا ما كانوا يتأخرون عن عزف الفرقة الموسيقية، بغضِّ النظر عن مدى بطء العزف، وكان لا بد من تركها.

لم يحدث قطُّ في هذه التجمعات السلمية، التي يستمتع فيها الشباب والشابات متعة بريئة ومعتدلة، أي أنواع من حدَّة الطبع. لماذا، إذن، في هذا المساء في منزل المصرفي كولار، بدت العصائر وكأنها قد تحولت إلى نبيذ مُسكِر، إلى شمبانيا فوارة، إلى شراب البنش المثير؟ لماذا، عند منتصف الأمسية، استحوذ نوع من السُّكْر الغامض على الضيوف؟ لماذا تحول الرقص الهادئ الرصين إلى رقص سريع؟ لماذا سرَّعت الفرقة الموسيقية من إيقاع عزفها؟ لماذا أطلقت الشموع بريقًا غير مألوف تمامًا كما حدث في المسرح؟ ما الكهرباء التي سرت في أنحاء قاعة استقبال المصرفي؟ كيف حدث أن كل زوجين راقصين يضم أحدهما إليه الآخر ويحتضنه، وتشابكت أيديهما معًا بقوة شديدة، لدرجة أن لفت هؤلاء «الشبان العُزَّاب» الانتباه إليهم بأداء بعض الخطوات الاستثنائية في تلك الرقصة التي عادة ما تكون وقورة للغاية، ورزينة للغاية، ومهيبة للغاية، ومحتشمة للغاية؟

واحسرتاه! مَن الذي يستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة المعقدة؟ رأى المفوَّض باسوف، الذي كان حاضرًا في الحفل، العاصفة قادمة بوضوح، لكنه لم يتمكن من السيطرة عليها أو الابتعاد عنها، وشعر بنوع من الثمالة يقتحم عقله. زادت قدراته الجسدية والعاطفية

حدَّة وقوَّة؛ فشوهد عدة مرات يُلقِي نفسه على الحلويات ويلتهمها بنهم، كما لو كان قد كسر للتوِّ صيامًا طويلًا.

كانت الحركة في الحفل في ازدياد طوال هذا الوقت. وخرجت من الصدور أنفاس طويلة كأنها طنين ضعيف. لقد رقص سكان كويكندن؛ رقصوا حقًّا؛ فاهتاجت الأقدام جرَّاء زيادة الإثارة، وأصبحت الوجوه أرجوانية اللون كوجه إله الخمر سيلينوس عند الإغريق، ولمعت العيون كالعقيق الأحمر، وتصاعدت حدة الاهتياج العام إلى أعلى درجة.

وآهٍ عندما عزفت الفرقة الموسيقية موسيقى الفالس من أوبرا «دير فريشوتز» (القناص الحر) — عندما هاجم الموسيقيون هذه الفالس، الألمانية الأصل، البطيئة الحركة للغاية بأيدٍ جامحة — آه! لمْ تعُد موسيقى فالس، بل دوامات وحشية، دوران طائش، التفافات جديرة بأن يقودها الشيطان، يتحكم في الميزان الموسيقيِّ بجمرة نار! ثم انطلقت رقصة جالوب جهنمية استمرت ساعة واحدة دون أن يستطيع أي شخص إيقافها، بلفَّاتها عبر الردهات، وقاعات الاستقبال، وغرف الانتظار والسلالم، من القبو إلى علية القصر الفخم، ورقصها الشبان والفتيات الصغيرات، والآباء والأمهات، وجميع الأشخاص من كل الأعمار، ومن كل وزن، ومن الجنسين، بمن فيهم كولار المصرفي البدين وزوجته، والمستشارون والقضاة، وكبير القضاة، ونيكلاوس والسيدة فان تريكاس والعمدة فان تريكاس، والمفوض باسوف نفسه، الذي لم يستطع بعد ذلك أن يتذكر قط مَن كانت شريكته في الرقص في تلك الليلة الرهيبة.

ولكنها لم تَنسَ! وأصبحت منذ ذلك اليوم ترى في أحلامها المفوَّض المتَّقد بالحماس يطوِّقها بذراعيه في عناقٍ ملتهب! وكانت «هي» تاتانمانس اللطيفة!

الفصل التاسع

وفيه يقول الدكتور أوكس ومساعده إيجين بضع كلمات قليلة.

* * *

«حسنًا يا إيجين؟»

«حسنًا يا سيدي، كل شيء جاهز. انتهى تمديد الأنابيب.»

«أخيرًا! سنعمل إذن على نطاق واسع، على العامة!»

الفصل العاشر

وفيه سيُكتَشَف أن الوباء غزا البلدة بأكملها، وتظهر الآثار الناجمة عنه.

* * *

ازداد الشر خلال الأشهر التالية انتشارًا، بدلًا من الانحسار؛ فامتد الوباء من المنازل الخاصة إلى الشوارع، ولم يعد بالإمكان التعرف على بلدة كويكندن.

غير أن ظاهرةً أغرب من تلك التي حدثت بالفعل ظهرت الآن؛ فقد أصبحت المملكة النباتية نفسها عرضة للتأثير الغامض، وليس المملكة الحيوانية وحسب.

وفقًا للمسار العادي للأمور، فإن الأوبئة تتخصص في عملها؛ فالأوبئة التي تهاجم الإنسان لا تصيب الحيوانات، والأوبئة التي تهاجم الحيوانات لا تصيب النباتات؛ فلم يُصَب حصانٌ قطُّ بالجُدري، ولا إنسانٌ بطاعون الماشية، ولم يعانِ خروفٌ من عفن البطاطس. ولكن يبدو هنا أن جميع قوانين الطبيعة قد انقلبت. فلم تتغير طبيعة سكان البلدة ومزاجهم وأفكارهم وحسب، بل عانت الحيوانات الأليفة — الكلاب والقطط والخيول والأبقار والحمير والماعز — من هذا التأثير الوبائي، وكأن توازنها المعتاد قد تغيَّر. حتى إن النباتات نفسها أُصيبت بتحوُّل غريبٍ مماثل.

ظهر في الحدائق والأراضي الزراعية والبساتين أعراض غريبة للغاية؛ فقد امتدت النباتات المتسلقة لمسافات أكبر، ونمت النباتات المُعنقَدة على نحوٍ أكبر، وأصبحت الشجيرات أشجارًا، وظهرت الرءوس الخضراء الصغيرة للحبوب — التي نادرًا ما تُزرع — ونمَت بضعف حجم نموها الذي تُحقِّقه في أفضل الظروف في نفس الفترة الزمنية. ونما الهليون بارتفاع عدة أقدام، وتضخَّم حجم الخرشوف ليصل إلى حجم الشمام، والشمام إلى حجم

القرع، والقرع إلى حجم اليقطين، واليقطين إلى حجم جرس الكنيسة، والذي يبلغ قطره في الواقع تسع أقدام. وأصبح الكرنب كالشجيرات، والفُطرُ كالمظلات.

ولم يختلف حال الفاكهة عن الخضراوات؛ فكان تناول حبة فراولة يتطلب شخصين، وتناول حبة كمثرى يتطلب أربعة أشخاص، كذلك اكتسب العنب أحجامًا ضخمة مشابهة لتلك التي جسَّدها نيكولا بوسان في لوحته «عودة الرسل إلى الأرض الموعودة».

حدث الشيء نفسه مع الزهور؛ فنشرت زهور البنفسج الضخمة عطرًا نفَّاذًا للغاية في الجو، وتألقت الورود الكبيرة بأزهى الألوان، وشكلت الزنابق، في غضون أيامٍ قليلة، أيكات عسيرة على الاختراق، وغَزَتْ زهور الغرنوقية والأقحوان والكاميليا والردندرة مماشيَ الحدائق، وأعاق بعضها نموَّ البعض الآخر. ويا لها من مشاعر تلك التي جاشت في نفوس زارعي أزهار التيوليب، تلك النباتات الزنبقية العزيزة على قلوب الفلمنجيين! وذُهل المبجَّل فان بيستروم في أحد الأيام عندما رأى في حديقته زهرة تيوليب هائلة الحجم؛ كانت عملاقة لدرجة أن كأسها تستطيع إيواء عش أُسرةٍ كاملة من طيور أبو الحناء!

وتوافد أهل البلدة جميعًا لرؤية هذه الظاهرة النباتية وأطلقوا عليها اسم «تيوليب كويكندن».

ولكن للأسف! فإذا كانت هذه النباتات، وهذه الفواكه، وهذه الزهور قد نمَت على نحوٍ ضخم، وإذا كانت جميع الخضراوات قد واصلت النمو بأحجام هائلة، وأثملت روعة ألوانها وعطورها الأنوف والعيون، فإنها ذبلت بسرعة؛ فقد استنفد الهواء الذي امتصَّته هذه النباتات قواها سريعًا، وسرعان ما ذبلت وجفَّت وماتت.

كان هذا مصير زهرة التيوليب الشهيرة، التي هزَلت وماتت بعد عدة أيام من التألق.

وسريعًا ما حدث الأمر نفسه مع الحيوانات الأليفة؛ من كلب المنزل إلى الخنزير الأليف، ومن طيور الكناري في قفصها إلى الديوك الرومية في الفِناء الخلفي. ويجب الإشارة إلى أنه في الأوقات العادية، كانت هذه الحيوانات على نفس قدر برود أصحابها. كانت الكلاب والقطط تعيش في خمول بدلًا من حياة النشاط المعتادة؛ فلم يحدث أن عبَّرت عن سعادتها بهزة ذيل، أو زمجرت تعبيرًا عن غضب. لم تكن ذيولها تتحرك قطُّ كما لو كانت مصنوعة من البرونز، ولم يحدث أن عقرت أي شيء أو خربشته منذ زمن سحيق. أما بالنسبة إلى الكلاب المسعورة، فكانت في نظرهم وحوشًا خيالية، مثل العنقاء وباقي المخلوقات الأسطورية الأخرى في الأساطير والقصص الخيالية.

ولكن يا له من تغييرٍ ذلك الذي حدث في بضعة أشهر، وسنحاول أن نذكر أصغر الحوادث التي وقعت خلالها! بدأت الكلاب والقطط في إظهار أسنانها ومخالبها، ونُفِّذت عدة إعدامات بعد ارتكاب جرائم متكررة، وشوهد حصان، للمرة الأولى، ممسكًا لجامه بين أسنانه ويجري في شوارع كويكندن، وشوهد ثور يندفع بقرنيه نحو ثور آخر من قطيعه، وحمار يُلقي نفسه على الأرض ويرفع أرجله في الهواء في ساحة سانت إرنوف، وينهق كما لم ينهق حمار قطُّ من قبلُ، وخروف يدافع عن نفسه فعليًّا بشجاعة أمام سكِّين الجزار.

اضطُرَّ العمدة فان تريكاس إلى وضع لوائح شُرطيَّة تتعلق بالحيوانات الأليفة، بعد أن جعلت شوارع كويكندن غير آمنة بسبب ما أصابها من جنون.

ولكن وا أسفاه! فإذا كانت الحيوانات قد جُنَّت، فلم يكن البشر أقل جنونًا، ولم ينجُ أحد من هذا البلاء باختلاف الأعمار؛ فسرعان ما أصبح الأطفال غير مُحتمَلين تمامًا، رغم أن تنشئتهم كانت سهلة حتى هذه الفترة. وللمرة الأولى اضطُرَّ القاضي أونري سينتاكس لمعاقبة أبنائه الذين كانوا في مقتبل العمر.

حدث نوع من التمرد في المدرسة الثانوية، وتحولت القواميس لقذائف مرعبة في الفصول الدراسية. ولم يخضع الطلاب لعقاب الحجز، إلى جانب أن العدوى قد طالت المعلمين أنفسهم، الذين أغرقوا الأولاد والبنات بمهامَّ وعقوباتٍ مُبالَغ فيها.

وحدثت ظاهرة غريبة أخرى؛ أفرط كل أهل كويكندن — الذين كانوا من قبلُ عنوانًا للاعتدال في المأكل والمشرب، وكان طعامهم الرئيسي هو الكريمة المخفوقة — بوحشية في الطعام والشراب؛ فلم يعد نظامهم الغذائي المعتاد كافيًا، وتحولت مَعِدَاتُهم إلى قِرَبٍ منتفخة، وأصبح لزامًا ملء هذه القِرَب على نحو نشط، وتضاعَف استهلاك البلدة للطعام والشراب ثلاثة أضعاف. وبدلًا من تناول وجبتين في اليوم، أصبحوا يتناولون ست وجبات. وحدث العديد من حالات عُسر الهضم، ولم يتمكن المستشار نيكلاوس من إشباع نهمه. ووجد فان تريكاس استحالةً في إطفاء ظمئه، وظل في حالة أقرب إلى الثمالة المسعورة.

باختصار، ظهرت أشد الأعراض وطأةً وظلت تتزايد يومًا بعد يوم. كان السُّكارى يترنَّحون في الشوارع، وكانوا في الغالب مواطنين من ذوي المناصب العليا.

كان لدى الطبيب دومينيك كوستوس الكثير من حالات حرقة المعدة، والالتهابات، والحالات العصبية التي تحتاج للعلاج، والتي أثبتت إلى أي درجة غريبة وصل اهتياج أعصاب الناس.

وقعت مشاجرات ومضايقات يومية في شوارع كويكندن التي صارت الآن مزدحمة، بعد أن كانت مهجورة في السابق؛ فلم يعد أحد يطيق البقاء في المنزل. وكان لزامًا إنشاء

قوة شُرطية جديدة للسيطرة على مفسدي السِّلْم العام، وأُنشئت زنزانات في دار البلدية، وسرعان ما امتلأت بالمجرمين المتمردين ليلًا ونهارًا. وأصيب المفوَّض باسوف بحالة من اليأس.

وعُقدت إحدى الزيجات في أقل من شهرين؛ في واقعة لم تحدث من قبلُ. نعم، تزوج ابن روب، مدير المدرسة، بابنة أوجستين دي روفير، بعد سبعة وخمسين يومًا فقط من طلب يدها!

وتم الاتفاق على زيجات أخرى، كانت في الماضي ستظل موضع شك ونقاش لسنوات، ورأى العمدة أنه على وشك أن يفقد ابنته الفاتنة سوزيل.

أما بالنسبة إلى تاتانمانس العزيزة، فقد تجرَّأت وتحدثت مع المفوَّض باسوف بشأن مشروع الزواج منه، والذي بدا لها أنه يمتلك كل عنصر من عناصر السعادة: الثروة، والشرف، والشباب!

وأخيرًا، ولكي تصل الأمور لأسوأ ما يمكن، حدثت مبارزة! نعم، مبارزة بالمسدسات من خمسٍ وسبعين خطوة باستخدام الخراطيش الكروية. وبين مَن؟ لن يصدق القراء أبدًا!

بين الصياد اللطيف فرانتس نيكلاوس، والشاب سايمون كولار، ابن المصرفي الثري.

وكان سبب هذه المبارزة ابنة العمدة، التي اكتشف سايمون أن قلبه يهيم بها حبًّا، ورفض أن يستسلم لخطبتها لمنافسه الجريء!

الفصل الحادي عشر

وفيه يتبنى أهل كويكندن قرارًا بطوليًّا.

* * *

رأينا الحالة البائسة التي وصل إليها أهل كويكندن؛ فكانت عقولهم كالسكارى، ولم يعد أحدهم يعرف نفسه أو يميزها؛ فأصبح أكثر المواطنين المسالمين مشاكسين. ولو نظرت إليهم بازدراء، فسوف يتحدَّونك في مبارزة على الفور. وأطلق بعضهم العنان لشواربهم، وكان العديد منهم — الأكثر عدائية — يبرمونها.

ولما أصبح هذا حالهم، أصبحت إدارة البلدة والحفاظ على النظام في الشوارع مهامَّ صعبة؛ لأن الحكومة لم تكن مدرَّبة على التعامل مع مثل هذه الأمور. وأصبح العمدة — المبجل فان تريكاس الذي رأيناه شديد الهدوء، شديد الكسل، غير قادر على التوصل إلى أي قرار — صعب المراس. وضجَّ منزله بصوته الحاد، وصار يتخذ عشرين قرارًا في اليوم، ويوبخ مسئولي البلدة، وينفذ بنفسه لوائح إدارته.

آه، يا له من تغيير! قصر العمدة الهادئ اللطيف، ذلك المنزل الفلمنجي الجميل، أين ذهب هدوءه السابق؟ ويا للتغييرات التي طرأت على منزله! فقد أصبحت السيدة فان تريكاس سليطة اللسان، غريبة الأطوار، فظَّة. كان زوجها ينجح أحيانًا في حجب صوتها من خلال التحدث بصوت أعلى منه، ولكن لم يكن يستطيع إسكاتها. وكان المزاج العدواني للسيدة المبجَّلة يُحفزه أي شيء. لم يَسِرْ شيء على ما يُرام، كان الخدم يزعجونها كل لحظة، وكانت تاتانمانس شقيقة زوجها، التي لم تكن أقل منها انفعالًا، تردُّ عليها ردودًا حادَّة. وبطبيعة الحال، كان السيد فان تريكاس يدعم لوتشيه، خادمته، كما هو الحال في جميع

الأسر الكريمة، مما كان يثير سخط الزوجة دائمًا، والتي دائمًا ما كانت تتشاجر مع زوجها، وتجادله وتفتعل معه الشجارات.

صاح العمدة البائس قائلًا: «ما الذي حدَث لنا بحق السماء؟ ما هذه النار التي تلتهمنا؟ هل مسنا الشيطان؟ آه، يا مدام فان تريكاس، سينتهي الأمر بموتي قبلك، ومن ثم ستتحطم كل تقاليد الأسرة!»

لعل القارئ لم ينسَ العرف الغريب الذي من خلاله سيصبح فان تريكاس أرملًا ويتزوج مرة أخرى، حتى لا يكسر تسلسل النسب.

في الوقت نفسه، أوجدت هذه النزعة التي سيطرت على جميع العقول آثارًا غريبة أخرى جديرة بالملاحظة؛ فهذه الإثارة — التي لا نعرف لها سببًا حتى الآن — أحدثت تغييرات فسيولوجية غير متوقعة؛ فكشفت المواهب — التي لم تكن معروفة حتى هذه اللحظة — عن نفسها، واكتُشفت القدرات والجَدارات فجأة. فأظهر الفنانون — الذين كانوا عاديين من قبلُ — قدراتٍ جديدة، وظهر السياسيون والمؤلفون، وأثبت الخطباء أنهم على قدر أصعب المناقشات، وألهبوا حماس الجمهور عند الردِّ على كل سؤال؛ هذا الجمهور الذي كان على استعدادٍ تام للإثارة. وانتقلت هذه الحركة من جلسات المجلس إلى الاجتماعات السياسية العامة، وأُسِّس نادٍ في كويكندن، وصدرت عشرون صحيفة — «كويكندن سيجنال»، و«كويكندن إمبارشيال»، و«كويكندن راديكال» وما إلى ذلك — وكتبت بأسلوب حماسي وأثارت تساؤلات شديدة الأهمية.

لكنك ربما تسأل: ماذا عن ...؟ فيما يتعلق بكل شيء، ولا شيء؛ فيما يتعلق ببرج أودينارد، الذي كان في طريقه للانهيار، ورغب البعض في هدمه، ورغب آخرون في ترميمه؛ فيما يتعلق بلوائح الشرطة الصادرة عن المجلس، والتي هدد بعض المواطنين المتعنتين بمقاومتها؛ وفيما يتعلق بكسح المزاريب، وإصلاح الصرف الصحي، وما إلى ذلك. كما لم يقتصر الخطباء الغاضبون في نقدهم على الإدارة الداخلية للبلدة؛ بل ذهبوا إلى بعيد، بدافع من التيار السائد، وكتبوا مقالات لدفع مواطنيهم نحو ويلات الحرب.

كان لدى كويكندن، على مدى ثمانمائة أو تسعمائة سنة سبب وجيه للحرب، لكنها كانت حريصة على إخماده تمامًا، وكان يبدو أن هناك احتمالية بأنه سيضمر ويتلاشى، ولن يظل قائمًا.

وفيما يلي ما أدى إلى نشوب الحرب.

ليس معروفًا عمومًا أن كويكندن تقع بجوار بلدة فيرجامِن الصغيرة في هذه الزاوية الدافئة من إقليم فلاندر، وأن أراضي هاتين البلدتين متجاورة.

حسنًا، في عام ١١٨٥، وقبل وقت من رحيل الكونت بالدوين إلى الحروب الصليبية، تجرأت بقرة من فيرجامِن — دعنا نُشِرْ إلى أنها ليست بقرة مملوكة لمواطن، ولكنها كانت ملكية عامة للبلدة — ودخلت إلى مرعى على أراضي كويكندن. كان هذا الحيوان لم يملأ فمه إلا ثلاث مرات وحسب، ولكن هذا الهجوم، أو الانتهاك، أو الجريمة — أيًّا كان ما تسميه — قد ارتُكب وأُدين على النحو الواجب؛ إذ كان القضاة في ذلك الوقت قد بدأوا بالفعل في معرفة كيفية التدوين.

قال ناتاليس فان تريكاس، وهو السلف الثاني والثلاثون للعمدة المذكور في هذه القصة: «سننتقم في اللحظة المناسبة، ولن يخسر أهل فيرجامِن شيئًا جراء الانتظار.»

أصبح أهل فيرجامِن في حذر، وانتظروا، دون أدنى شك، أن تتلاشى ذكرى الجريمة بمرور الوقت. وبالفعل ظلت علاقاتهم مع جيرانهم في كويكندن طيبة لعدة قرون.

ولكنهم لم يضعوا في الحسبان أي احتمال آخر، ولا هذا الوباء الغريب، الذي غيَّر جذريًّا شخصية سكان كويكندن، وأثار انتقامهم الخامل.

كان الخطيب المفوَّه المولع بالحرب شوت في نادي شارع مونسترليه هو مَن أثارَ فجأةً هذا الموضوع لدى سامعيه، ملهبًا مشاعرهم بالتعبيرات والاستعارات التي تُستخدم في مثل هذه المناسبات. وأعاد إلى الأذهان الجريمة، والإهانة التي لحقت بكويكندن، والتي لا يمكن أن تقبلها أمة «غيورة على حقوقها» كما حدث سابقًا، وأوضح أن الإهانة لا تزال قائمة، والجرح لا يزال ينزف، وتحدَّث عن هز شعب فيرجامِن لرءوسهم في ازدراء، في إشارة إلى مدى الازدراء الذي ينظرون به إلى شعب كويكندن، وناشد أبناء بلدته، الذين أيدوا، ربما دون وعي، هذه الإهانة الفتاكة لقرون طويلة. وناشد «أبناء البلدة القديمة» بأن يجعلوا هدفهم الأوحد هو الحصول على تعويض ضخم. وأخيرًا، وجَّه نداءً إلى «جميع الطاقات الحية في الأمة!»

استُقبلت هذه الكلمات — التي كانت جديدة على آذان أهل كويكندن — بحماسٍ قد لا يمكن وصفه، ولكن يمكن تخمينه؛ فقد نهض جميع المستمعين، ورفعوا أيديهم مطالِبين بالحرب بصيحات عالية. لم يحقق المحامي شوت نجاحًا من هذا القبيل في السابق، علمًا بأن انتصاراته السابقة لم تكن قليلة.

إن كان العمدة، والمستشار، وجميع الأعيان الحاضرين في هذا الاجتماع التاريخي، سيحاولون مقاومة هذه الثورة الشعبية، فإن محاولتهم كانت ستذهب أدراج الرياح، إضافة إلى ذلك، لم يكن لديهم الرغبة في هذا، وصاحوا بصوت عالٍ، إن لم يكن أعلى من البقية:

«إلى الحدود! إلى الحدود!»

ولما كانت الحدود على بُعد ثلاثة كيلومترات من أسوار كويكندن، فمن المؤكد أن سكان فيرجامِن كانوا في خطرٍ حقيقي؛ إذ ربما كان من السهل غزوهم دون توافر وقت للانتباه لذلك.

في غضون ذلك، حاول الكيميائي النبيل جوس لفرينك — الذي احتفظ وحده بعقلانيته في هذا الموقف الخطير — أن يجعل مواطنيه يدركون أنهم في حاجة أيضًا للبنادق، والمدافع، والجنرالات من أجل خطتهم.

فأجابوه، بإيماءات تنمُّ عن نفاد الصبر، بأن الجنرالات والمدافع والبنادق سوف يُدبر أمرها لاحقًا؛ وأن حق البلدة وحبها كافيان، ومن شأنهما أن يجعلا من أي شعب شعبًا لا يُقهر.

وهنا تقدَّم العمدة نفسه، وتدخَّل سريعًا بخطبة عصماء قطع فيها الطريق على الجبناء الذين يُخفون خوفهم تحت قناعٍ من الحكمة، وهو القناع الذي مزَّقه بيدٍ وطنية.

ووسط هذا الاندفاع بدا وكأن القاعة ستنهار من التصفيق.

وطُلب التصويت بحماس شديد، وأُخذ وسط التهليل.

وتضاعفت الصيحات: «إلى فيرجامِن! إلى فيرجامِن!»

ثم أخذ العمدة على عاتقه مسئولية تسيير الجيوش، وباسم البلدة وعد بإقامة احتفالات النصر الرومانية، على غرار الاحتفالات التي كانت تُقام في زمن الرومان حال عودة أحد الجنرالات منتصرًا.

وفي الوقت نفسه، أصر جوس لفرينك — الذي كان رجلًا عنيدًا، ولم يعتبر نفسه مهزومًا، على الرغم من أنه هُزم حقًّا — على إبداء ملاحظة أخرى. فأراد أن يشير إلى أن احتفال النصر لم يُمنح في روما إلا لأولئك الجنرالات المنتصرين الذين قتلوا خمسة آلاف من جيوش العدو.

صاح المجتمعون في اهتياج: «حسنًا، حسنًا!»

«وبما أن عدد سكان بلدة فيرجامِن ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وسبعون نسمة فقط، فسيكون هذا صعبًا، ما لم يُقتل الشخص نفسه عدة مرات.»

ولكنهم لم يدعوا الرجل المنطقي سيئ الحظ يكمل كلامه، فطردوه ودفعوه بقوَّة وأصيب بكدمات.

وقال بولماشر البقال، الذي كان عادةً ما يبيع البقالة بالتجزئة: «أيها المواطنون، مهما كان ما قاله هذا الصيدلي الجبان، فإنني أتعهد بنفسي بقتل خمسة آلاف من أهل فيرجامِن، لو قبلتم خدماتي!»

وصاح وطنيٌّ آخر أكثر تصميمًا: «خمسة آلاف وخمسمائة!»

فقال البقال: «ستة آلاف وستمائة!»

فصاح جان أوربيديك، صانع الحلوى في شارع هيملينج، الذي كان في طريقه لتحقيق ثروة عن طريق صنع الكريمات المخفوقة: «سبعة آلاف!»

صاح العمدة فان تريكاس عندما لم يجد أحدًا آخر يزايد: «قُضي الأمر!»

وهكذا أصبح صانع الحلوى جان أوربيديك القائد العام لقوات كويكندن المسلحة.

الفصل الثاني عشر

وفيه يُسدي المساعد إيجين نصيحةً صائبة، يرفضها الدكتور أوكس بشدة.

* * *

قال إيجين في اليوم التالي بينما كان يصب دلاءً من حمض الكبريتيك في أحواض البطارية الضخمة: «حسنًا يا سيدي.»

استأنف الدكتور أوكس حديثه: «حسنًا، ألم أكن على صواب؟ أرأيت ما وصلت إليه التطورات التي طرأت على أمَّةٍ بأكملها، ليس فقط على الجانب الجسدي، بل في أخلاقياتها، وكرامتها، ومواهبها، وحسها السياسي! الأمر كله متعلق بحركات الجزيئات لا أكثر.»

«لا شك في هذا، لكن ...»

«لكن ...»

«ألا تظن أن الأمور قد ذهبت لأبعد مما ينبغي، وأنه لا يجب استثارة هؤلاء المساكين بشكل زائد عن الحد؟»

صاح الدكتور: «لا، لا! لا! سأستمر حتى النهاية!»

«كما تشاء يا سيدي، لكن التجربة تبدو أنها قد حسمت، وأظن أن الوقت حان لـ...»

«لـ...»

«لإغلاق الصمام.»

صاح الدكتور أوكس: «حاول فقط! سأخنقك إذا حاولت ذلك!»

الفصل الثالث عشر

وفيه يثبُت مرة أخرى أنه عند التسامي فوق كل شيء، يمكن التغاضي عن كل الضآلة البشرية.

* * *

سأل العمدة فان تريكاس المستشار نيكلاوس: «تقول ماذا؟»

رد نيكلاوس بحزم: «أقول إن هذه الحرب ضرورية وإن الوقت قد حان للانتقام لهذه الإهانة.»

ردَّ العمدة بنبرة حادَّة: «حسنًا، أكرر كلامي إذن؛ إذا لم يستغل سكان كويكندن هذه الفرصة للانتقام لحقوقهم، فإنهم لا يستحقون اسمهم.»

«وبالنسبة إليَّ، ما زلت مصرًّا على أن علينا جمع قواتنا وقيادتها للجبهة دون تأخير.»

ردَّ فان تريكاس: «حقًّا يا سيدي حقًّا! وهل تتحدث هكذا إليَّ؟»

«نعم يا سيدي العمدة، وستسمع الحقيقة مهما كانت بغيضة.»

رد فان تريكاس بانفعال: «وستسمعها بنفسك أيها المستشار؛ لأن الحقيقة ستصدر من فمي بأفضل مما ستصدر من فمك! نعم يا سيدي نعم، أي تأخير سيكون مُخزيًا. لقد انتظرت بلدة كويكندن تسعمائة عام من أجل اللحظة التي ستثأر فيها، ومهما كان ما ستقول، وسواء كان هذا سيسعدك أم لا، سنمضي لمواجهة العدو.»

رد نيكلاوس بفظاظة: «هكذا إذن! حسنًا يا سيدي، سنمضي بدونك إذا لم تكن تريد المجيء.»

«مكان العمدة في مقدمة الصفوف يا سيدي!»

«وكذلك المستشار، يا سيدي.»

صاح العمدة: «أنت تهينني بمعارضة رغباتي»، وبدت قبضتاه متأهبتين للانقضاض عليه.

صاح نيكلاوس وبدا كما لو كان مستعدًّا بنفس القدر للشجار: «وأنت تُهينني بنفس القدر عندما تُشكك في وطنيتي.»

«أنا أقول لك يا سيدي إن جيش كويكندن سيتحرك خلال يومين!»

«وأكرر يا سيدي أنه لن تمر ٤٨ ساعة إلا وسنكون قد تحركنا لمواجهة العدو!»

من خلال هذا الجزء من النقاش، من السهل إدراك أن المتحدثين يؤيدان الفكرة نفسها. كلاهما يبحث عن العداوة؛ لكن وبما أن اهتياجهما جعلهما يميلان إلى الشجار، لم يشأ نيكلاوس أن يستمع إلى فان تريكاس أو العكس. لم يكن النقاش ليكون بهذه الحدة لو كان لكل منهما رأي مخالف بشأن هذا الأمر الخطير؛ لو كان العمدة يفضِّل الحرب والمستشار يصرُّ على السلام. ظل الصديقان القديمان يُحدِّق كلٌّ منهما في الآخر بشراسة. من خلال نبضهما المتسارع ووجهيهما المحمرَّين وحدقتي العين الضيقتين، وارتجاف عضلاتهما، كان يمكن القول إنهما مستعدان لتبادل اللكمات.

لكن دقات ساعة ضخمة كبحت جماح الخصمين، لحسن الحظ، في لحظة بدا فيها أنهما على وشك مهاجمة أحدهما الآخر.

صاح العمدة: «لقد حانت الساعة أخيرًا!»

سأل المستشار: «أي ساعة؟»

«ساعة الذهاب إلى برج جرس الكنيسة.»

«هذا حقيقي، وسواء كان هذا سيرضيك أم لا، فأنا ذاهب يا سيدي.»

«وأنا كذلك.»

«دعنا نذهب!»

«هيا بنا!»

ربما كان من الممكن افتراض حدوث صدام بينهما بسبب هذه الكلمات الأخيرة، وأن العدوَّين قد مضيا في مبارزة؛ لكن الأمور لم تَسِرْ هكذا؛ فقد اتُّفِق على أنه يجب على العمدة والمستشار؛ كونهما صاحبَيْ أكبر مقامين رفيعين في البلدة، الذهاب إلى دار البلدية والظهور فوق البرج المرتفع الذي يُطلُّ على كويكندن، حتى يمكنهما فحص الريف المحيط، للإتيان بأفضل خطة استراتيجية للتقدم بالقوات.

ورغم أنهما كانا متفقين بخصوص هذا الأمر، لم يتوقفا عن الشجار بشكل عنيف أثناء ذهابهما. كان صوتهما العالي يدوِّي في الشوارع، لكن كل المارة كانوا قد اعتادوا هذا؛

فقد بدا الحنق بين أصحاب المقام الرفيع أمرًا طبيعيًّا جدًّا، حتى إن أحدًا لم يُلقِ له بالًا. وفي هذه الظروف، كان يُنظَر إلى الرجل الهادئ على أنه كائن خرافي.

بعد وصولهما إلى رواق برج جرس الكنيسة، كان العمدة ومستشاره في ذروة نوبة غضب شديدة. زالت الحُمرة عن وجهيهما، وحلَّ محلَّها شحوب الغضب؛ فبرغم أنهما كانا متفقَين على نفس الفكرة، أدى هذا النقاش الرهيب إلى حدوث تشنجات داخلية، والجميع يدرك أن الشحوب يشير إلى أن الغضب قد بلغ أقصى مداه.

عند أسفل السُّلَّم الضيق للبرج، حدث انفجار حقيقي. من يجب أن يصعد أولًا؟ من يجب أن يتسلق الدرجات الملتوية أولًا؟ تُلزمنا الحقيقة بأن نقول إن مشاجرة قد وقعت بينهما، وإن المستشار نيكلاوس، الذي نسي كل ما يدين به لرئيسه، الحاكم الأعلى للبلدة، دفع فان تريكاس بعنف للوراء واندفع صاعدًا السلالم أولًا.

صعد الاثنان، وكلاهما يندد ويستشيط غضبًا في وجه الآخر عند كل درجة. كان يُخشَى أن يبلغ الشجار ذروته في قمة البرج، الذي يرتفع عن الرصيف ثلاثمائة وسبعًا وخمسين قدمًا.

لكن سرعان ما تقطعت أنفاس الخصمين، وفي غضون وقت قصير، عند الدرجة الثامنة عشرة، بدآ الصعود بثقل وتعالت أنفاسهما وقصرت.

ثم خمد بركان غضبهما — هل كان هذا بسبب انقطاع الأنفاس؟ — أو على الأقل ظهر على هيئة تنابزٍ متوالٍ بالألقاب غير اللائقة. بدا أنهما ساكنان، ومن الغريب القول إنه بدا كما لو كان اهتياجهما يقلُّ كلما صعدا للأعلى فوق مستوى البلدة. سيطر على عقلَيهما نوع من الخمول والهدوء، برد دماغاهما وهدآ، مثل كنكة من القهوة أُزيلت من فوق النار. لماذا؟

لا يمكننا الإجابة عن هذا السؤال، لكن الحقيقة هي أنه بمجرد وصول الخصمين لمنبسط معين في الدَّرَج على ارتفاع مائتين وست وستين قدمًا فوق سطح الأرض، جلسا، وبهدوء أكبر نظر أحدهما إلى الآخر بدون أي لمحة غضب في وجهيهما.

قال العمدة: «كم هو مرتفع!» مُمرِّرًا منديله على وجهه المتورِّد بالحمرة.

ردَّ مستشاره: «مرتفع للغاية! هل تعرف أننا ارتفعنا عن كنيسة سانت مايكل في هامبورج بأربع عشرة قدمًا؟»

رد العمدة: «أعلم هذا»، قالها بنبرة غرور يمكن التسامح فيها كونها صادرة من الحاكم الأعلى لبلدة كويكندن.

بعد قليل، استأنفا صعودهما، ملقيَين نظراتٍ فضولية عبر الفتحات في جدران البرج. كان العمدة في المقدمة بدون أي ملاحظات من مستشاره. حتى عندما وصل فان تريكاس إلى الدرجة الثلاثمائة والأربعين وكان مرهقًا للغاية، دفعه نيكلاوس من الخلف برفق. لم يُبدِ العمدة أي مقاومة لهذا، وعندما وصل إلى منصة البرج، قال بلطف:

«شكرًا يا نيكلاوس، سأفعل المِثْل معك يومًا ما.»

قبل قليل كان الرجلان يقفان أسفل البرج كوحشَين مسعورَين، كلاهما مستعد لتقطيع الآخر إربًا؛ وها هما الآن صديقان وقد وصلا إلى قمته.

كان الطقس رائعًا حيث كان شهر مايو، كانت الشمس قد بخَّرت كل الضباب وكان الجو صحوًا ورائقًا! كان يمكن تمييز أصغر الأشياء في مساحة واسعة، كانت أسوار فيرجامِن ببياضها اللامع، وأسقفها الحمراء المدببة وأبراج كنائسها المتألقة في ضوء الشمس، باديةً على بُعد بضعة أميال قليلة. وكانت هذه هي البلدة التي حُكِم عليها بكل أهوال النيران والسلب والنهب!

جلس العمدة والمستشار متجاورَيْن على مقعد صخري صغير كشخصين نبيلين جمع بين روحيهما تقاربٌ وانسجام شديدان. نظرا حولهما بينما كانا يستعيدان أنفاسهما؛ ثم بعد فترة صمت قصيرة ...

صاح العمدة: «كم هذا رائع!»

ردَّ مستشاره: «نعم، إنه شيء مثير للإعجاب! ألا يبدو لك يا عزيزي فان تريكاس أن الإنسانية مقدَّر لها أن تسكن مثل هذه الارتفاعات بدلًا من الزحف على سطح الكوكب؟»

«أتَّفق معك يا مستشاري الأمين. أتفق معك؛ إن المرء تتحسَّن مشاعره عندما تتجلَّى أمامه الطبيعة، يتنفسها بكل معنى الكلمة! تلك هي الارتفاعات التي يجب أن ينشأ فيها الفلاسفة، ويحيا فيها ذوو الحكمة والعقل الراجح، مرتقين فوق مآسي هذا العالم!»

سأل المستشار: «هلا دُرْنا حول مُنبسَط الدَّرَج؟»

ردَّ العمدة: «هيا بنا ندُرْ حوله.»

وفحَص الصديقان كل نقطة في الأفق، متشابكَي الذراعين، تاركَين، كما مضى، فترات صمت طويلة بين الأسئلة والإجابات.

قال فان تريكاس: «لقد مضت على الأقل سبع عشرة سنة منذ صعدتُ برج الكنيسة.»

رد نيكلاوس: «لا أظن أنني أتيت من قبلُ إلى هنا، وأنا نادم على هذا؛ فالمنظر من هذا الارتفاع مهيب! هل ترى، يا صديقي، المجرى الجميل لنهر الفار بينما يشق طريقه بين الأشجار؟»

«وما وراء هذا من مرتفعات سانت هيرمانداد! كم تتلاقي برشاقة في الأفق! انظر إلى هذا الحدِّ المصنوع من الأشجار الخضراء، والذي رتَّبته الطبيعة على نحوٍ رائع! يا للطبيعة، يا للطبيعة يا نيكلاوس! هل يمكن أن تنافسها يد الإنسان يومًا ما؟»

رد المستشار: «إنه شيء ساحر يا أعز أصدقائي. انظر كيف ترقد قطعان الماشية في المروج الخضراء، قطعان الثيران والأبقار والخراف!»

«والعمال وهم متجهون إلى الحقول! كأنهم رعاة من أركاديا، لا ينقصهم إلا مزمار القِربة!»

«وفوق كل هذا الريف الخصب السماءُ الزرقاء الجميلة التي لا يحجبها أي ضباب! يا إلهي يا نيكلاوس! يمكن للمرء أن يصبح شاعرًا هنا! لا أفهم لماذا لم يصبح القديس سمعان العامودي أحد أفضل شعراء العالم.»

رد المستشار بابتسامة لطيفة: «ربما بسبب أن العمود الذي كان يجلس عليه لم يكن مرتفعًا بما يكفي.»

في هذه اللحظة، دقَّت موسيقى أجراس كنائس كويكندن، عزفت الأجراس الصدَّاحة أحد أعذب ألحانها، وأخذ الصديقان يستمعان إليها في نشوة وطرب.

ثم قال فان تريكاس، بصوتٍ خفيض:

«لكن يا صديقي نيكلاوس، ما الذي أتينا هنا إلى قمة البرج لنفعله؟»

رد المستشار: «في الواقع، لقد سمحنا لأنفسنا بالاستغراق في أفكارنا الحالمة ...»

كرر العمدة: «ما الذي أتينا هنا لنفعله؟»

«أتينا لاستنشاق هذا الهواء النقي الذي لم يُفسده الضعف البشري.»

«حسنًا، هلَّا نزلنا يا صديقي نيكلاوس؟»

«لننزلْ يا صديقي فان تريكاس.»

ألقيا نظرة أخيرة على المنظر البانورامي الرائع الذي امتد أمام أعينهما؛ ثم تقدم العمدة أولًا، وبدأ في الهبوط بإيقاع بطيء ومدروس، خلفه المستشار بخطوات. وصلا إلى منبسط الدَّرَج الذي توقَّفا فيه عند الصعود. وبدأت وجناتهما في الاحمرار بالفعل، وتلكآ قليلًا ثم واصلا هبوطهما.

في غضون لحظات، كان فان تريكاس يتوسل إلى نيكلاوس أن يبطئ؛ إذ شعر به خلفه مباشرة و«أصابه هذا بالقلق». بل كان الأمر أكثر من مجرد قلق؛ فبعد هبوط عشرين درجة، أمر مستشاره بالوقوف حتى يمكنه التقدم عنه بمسافة.

رد المستشار بأنه لا يودُّ إبقاء رِجله معلَّقة في الهواء بانتظار رغبة العمدة، واستمر في الهبوط.

أجاب العمدة بتعبيرٍ وقح.

رد المستشار بتلميح مُهين عن عمر العمدة، الذي كان مقدَّرًا له، طِبقًا لعادات عائلته، أن يتزوج مرة أخرى.

هبط العمدة عشرين درجة أخرى، وحذَّر نيكلاوس أن يحافظ على هذه المسافة بينهما.

رد نيكلاوس أنه في جميع الأحوال سيهبط أولًا؛ وبسبب ضيق المسافة بينهما، اصطدم الرجلان، ووجدا نفسيهما في ظلام دامس. كانت كلمات مثل «أَبلَه» و«مُغفَّل» هي أقل ما قيل في وصف كلٍّ منهما للآخر حينذاك.

صاح العمدة: «سنرى أيها الغبي الفظ! سنرى ماذا ستفعل في هذه الحرب، وبأي رتبة ستذهب إليها!»

رد نيكلاوس: «في الرتبة التي تسبقك، أيها العجوز المغفَّل!»

ثم تعالتْ صيحاتٌ أخرى وبدا كما لو كان جسداهما يتدحرج أحدهما فوق الآخر. ماذا يحدث؟ لماذا تغيرت طباعهما بهذه السرعة؟ لماذا تحوَّلا من حَمَلين وديعين في قمة البرج إلى نمرَيْن بعد هبوطهما مائتي قدم؟!

أيًّا كان ما حدث، فقد فتح حارس البرج، عند سماعه لهذه الضوضاء، الباب في اللحظة التي كان فيها الخصمان جاحظَي العينين، مجروحَين، يمزِّق كلٌّ منهما شعر الآخر، لكن لحسن الحظ كانا يرتديان شعرًا مستعارًا.

صاح العمدة وهو يلوح بقبضته تحت أنف خصمه: «كم أجد متعة في ضربك!»

رد المستشار نيكلاوس مُتمْتِمًا: «وقتما تريد!» محاولًا الرد بركلة قوية.

حتى الحارس نفسه، الذي كان في حالة اهتياج — لا أعرف سببه — ظن أن المشهد الذي أمامه طبيعي تمامًا. لا أدري أي نوع من الإثارة دفعه للمشاركة في هذا، لكنه نجح في التحكم في نفسه، وذهب ليعلن في الحي أن مواجهة عدائية على وشك الوقوع بين العمدة فان تريكاس والمستشار نيكلاوس.

الفصل الرابع عشر

وفيه تتطور الأمور لدرجة أن سكان كويكندن والقارئ وحتى المؤلف يطلبون حلًّا عاجلًا لهذه المشكلة.

* * *

أثبتت الحادثة الأخيرة مدى الإثارة الشديدة التي وصل إليها سكان كويكندن؛ فها هما أقدم وألطف صديقين في البلدة — قبل ظهور الوباء — قد وصلا لهذه الدرجة من العنف! وحدث هذا بعد دقائق فقط من استرداد انسجامهما المتبادل المألوف، وفطرتهما الودودة، وعادتهما بالتأمل في الطبيعة في قمة البرج!

لم يستطع الدكتور أوكس إخفاء فرحته عند علمه بما حدث، ورفض الحجج التي وجهها إليه إيجين، الذي كان يرى أن الأمور تتخذ منعطفًا خطيرًا. علاوةً على ذلك، كانت حالة الهياج العام التي أصابت الناس قد انتقلت إليهما. فلم يكونا أقل تحفُّزًا من بقية سكان كويكندن، وانتهى بهما الحال إلى الشجار بنفس العنف الذي تشاجر به العمدة والمستشار.

بجانب ذلك، ثمة مسألة طغت على ما سواها، وتأجلت المواجهات المرتقبة بسبب مشكلة صعوبة مواجهة أهل فيرجامن؛ فلم يكن أي رجل يملك حق إهدار دمه، الذي ينتمي حتى آخر قطرة فيه لبلده، في حالة تعرُّضه لخطر. كان الأمر ببساطة خطيرًا، ولم يكن ثمة مجال للانسحاب.

ورغم حَميَّة الحرب التي ملأت العمدة فان تريكاس، لم يكن يرى أنه من الأفضل مواجهة العدو بدون تحذيره؛ لذا أرسل إليهم، من خلال الشُّرطي الريفي، هوترينج، مُطالبًا الفيرجامنيين بتعويضٍ عن الجريمة التي ارتُكبت على أرض كويكندن عام ١١٩٥.

لم تستوعب السلطات في فيرجامِن في البداية ما كان يتحدث به المبعوث، الذي رغم صفته الرسمية، أعيد مرة أخرى إلى الحدود بلامبالاة شديدة.

أرسل فان تريكاس بعدئذٍ أحد المرافقين الشخصيين للجنرال-الحلواني، وهو المواطن هيلدفيرت شومان، وهو صانع للسكاكر القاسية، وكان رجلًا حازمًا ونشيطًا للغاية، حيث حمل إلى سلطات فيرجامن المحضر الأصلي للواقعة، الذي حُرِّر في عام ١١٩٥ بأمر من العمدة ناتاليس فان تريكاس.

انفجر المسئولون في فيرجامن من الضحك، وعامَلوا الضابط المرافق بمثل ما عاملوا به الشُّرطي الريفي.

لذا بدأ العمدة في جمع كبار أعيان البلدة.

كُتبتْ رسالة، صِيغتْ بأسلوبٍ قوي وواضح كتحذيرٍ أخير، وذُكِر فيها سبب النزاع صراحةً، وأُمهلت المدينةُ المذنبة مهلة أربعٍ وعشرين ساعة لتصحيح الانتهاك الذي ارتُكب في حق كويكندن.

أُرسِلت الرسالة لتعود بعد بضع ساعات ممزقة إلى قطع صغيرة، وهو ما مَثَّل العديد من الإهانات الجديدة. كان أهل فيرجامن على علم بتسامح أهل كويكندن ورباطة جأشهم، وسخروا منهم ومن مطلبهم، ومن ذريعتهم للحرب، ومن تحذيرهم النهائي.

لم يتبقَّ إلا شيء واحد يمكن القيام به، وهو اللجوء للسلاح واستحضار إله المعارك، والاندفاع لقتال أهل فيرجامِن، اتباعًا للأسلوب البروسي، قبل أن يُعِدُّوا أنفسهم للمواجهة.

اتخذ المجلس القرار في اجتماع رسمي خاص اختلطت فيه الصيحات والتوبيخات، وإيماءات التهديد بعنف غير مسبوق. لم يكن أي حشد من البلهاء، أو جمع من المجانين أو المخابيل ليكون بهذا الاضطراب.

بمجرد إعلان الحرب، حشد الجنرال جان أوربيديك قواته، التي ربما بلغ عددها ألفين وثلاثمائة وثلاثة وتسعين محاربًا، هو عدد سكان البلدة بأكملها. انضم الذكور القادرون إلى النساء والأطفال والعجائز. ووُضِعت أسلحة البلدة تحت الطلب، وكان قد عُثِر على خمسة، اثنان منها بدون زناد، ووُزعت على مقدمة القوات. كان سلاح المدفعية يتألف من

المدفع القديم الخاص بالقصر، استُولي عليه عام ١٣٣٩ عند الهجوم على كويزنوي — وهي إحدى المرات الأولى التي استُخدم فيها المدفع في التاريخ — ولم يُستخدم منذ خمسة قرون. لحسن حظ أولئك الذين عُيِّنوا مسئولين عنه، لم يكن ثمة مقذوفات لتلقيمه بها، ولكن بحالتها تلك، فإن هذه الآلة يمكنها خداع العدو. أما بالنسبة إلى الأسلحة الخفيفة، فقد أتوا بها من متحف الآثار القديمة وكانت عبارة عن فئوس قصيرة اليد من الصوان، وخوذات، وبلطات حرب فرانكية، ورماح، ومطارد، وسيوف مبارزة ذات حدين، وغير ذلك؛ وكذلك ما تحتويه الترسانات المنزلية المعروفة باسم «الخزانات» أو «المطابخ». لكن الشجاعة والحق وكراهية الأجنبي والتوق للانتقام كانت تُغني عن أفضل الآلات، وتحل محل المدافع الرشاشة الحديثة — أو كان هذا هو المنشود على الأقل — والبنادق التي تُملأ من المؤخرة.

استُعرِضت القوات، ولم يتخلف أي مواطن عن الحضور والانضمام إليها. سقط الجنرال أوربيديك، الذي كان مجلسه فوق صهوة جواده أبعد ما يكون عن الاستقرار، وكان جواده شرسًا، ثلاث مرات أمام أفراد الجيش، لكنه نهض مرة أخرى دون أي إصابات، واعتبروا هذا فأل خير. وكان على رأس القوات العمدة والمستشار والمفوَّض المدني وكبير القضاة ومعلم المدرسة والمصرفي والقسُّ، باختصارٍ كلُّ أعيان البلدة. لم تُذرَف دمعة واحدة من الأمهات أو الشقيقات أو البنات، بل دفعن أزواجهن وآباءهن وأشقاءهن للذهاب إلى القتال، بل تبعنهم وشكَّلن خطوط الدفاع الخلفية، تحت إمرة السيدة فان تريكاس الشُّجاعة.

أطلق منادي البلدة، جان ميسترول، النفير، وتحرَّك الجيش متجهًا ذاتيًّا، بصيحات شرسة، تجاه بوابة أودينارد.

في اللحظة التي كانت فيها مقدمة طابور الجنود على وشك تجاوز أسوار البلدة، ألقى شخصٌ نفسه أمامهم.

صاح الرجل: «توقفوا! توقفوا! أيها الحمقى! أوقفوا صياح أبواقكم! دعوني أغلق الصمام! طبيعتكم لم تتغير! أنتم مواطنون صالحون وهادئون ومسالمون! إذا كنتم ثائرين، فهذا خطأ سيدي الدكتور أوكس! إنها تجربة! تحت ذريعة إنارة شوارعكم بغاز الأوكسيهيدريك، شبَّعَ …»

كان المساعد ثائرًا للغاية، لكنه لم يستطع إكمال حديثه؛ ففي اللحظة التي أوشك فيها سِرُّ الدكتور أوكس على أن يفلت من بين شفتيه، قفز الأخير على إيجين السيئ الحظ في غضب لا يوصف وعاجَلَه بلكمات أغلقت فمه.

ودارت معركة؛ فقد انجرف العمدة والمستشار وأعيان البلدة، الذين توقفوا عند ظهور إيجين المفاجئ، بدورهم مدفوعين بحَنَقهم وغضبهم، واندفعوا تجاه الغريبَين دون الانتظار للاستماع إلى أيٍّ منهما.

كان الدكتور أوكس ومساعده، اللذان تعرَّضا للضرب والجلْد، على وشك أن يُجَرُّوا إلى المبنى الدائري بأوامر من فان تريكاس عندما ...

الفصل الخامس عشر

وفيه تحدث الانفراجة.

* * *

دوَّى صوت انفجار ضخم، وبدا الجو الذي يغلف كويكندن بالكامل متوهِّجًا، وانطلقت شعلة شديدة وقوية بشكل غريب تمامًا تجاه السماء كالشهاب، لو كان الوقت ليلًا، للاح ضوءُها للعيان من مسافة عشرة فراسخ.

سقط جيش كويكندن بالكامل أرضًا كما لو كان جيشًا من الرهبان. ولحُسن الحظ لم يكن هناك أي ضحايا؛ فيما عدا بعض الخدوش والجروح البسيطة. أما الحلواني، فقد شاء القدَر ألا يقع من على جواده هذه المرة، واحترقت شارته وهرب بدون أي إصابات أخرى.

ما الذي حدث؟

الأمر بسيط للغاية كما تبيَّن بعد قليل؛ لقد انفجر مصنع الغاز. ففي غياب الدكتور ومساعده، حدث خطأ ما بدون شك بسبب الإهمال، ليس معروفًا كيف أو لماذا حدث اتصال بين الخزان الذي يحوي الأكسجين والآخر الذي يحوي الهيدروجين، ونتج عن اتحاد الغازين خليط متفجر، اشتعلت فيه النيران عرَضًا.

تغيَّر كل شيء إثر ذلك؛ لكن عندما نهض الجنود مرة أخرى، كان الدكتور أوكس ومساعده إيجين قد اختفيا.

الفصل السادس عشر

وفيه يدرك القارئ الذكي أن تخمينه كان صحيحًا، رغم كل احتياطات المؤلف.

* * *

بعد الانفجار، عادت بلدة كويكندن في الحال البلدة الفلمنكية اللامبالية المسالمة كما كانت من قبلُ.

بعد الانفجار، الذي لم يُحدِث بالتأكيد إثارة قوية، اتجه كل مواطن بلا تفكير إلى منزله دون أن يعرف السبب، وكان العمدة يستند على ذراع المستشار، بينما كان المحامي شوت يسير بصحبة الدكتور كوستوس متشابكَي الذراعين، وكان فرانتس نيكلاوس يسير بصحبة سايمون كولار بأُلفة متماثلة، حيث كان كلاهما يسير في هدوء وسكينة دون حتى أن يدرك ما حدث، ونسيا بالفعل أمر فيرجامن والانتقام. عاد الجنرال إلى حلواه وعاد مرافقه إلى صناعة السكاكر القاسية.

وهكذا عمَّ الهدوء كل شيء مرة أخرى، وعادت الحياة بشكلها القديم بين البشر والحيوانات؛ والحيوانات والنباتات؛ وحتى في بوابة برج أودينارد، الذي أدى الانفجار — أحيانًا ما تكون تلك الانفجارات مدهشة — إلى انتصابه مرة أخرى!

ومنذ ذلك الحين، لم تُنطَق كلمةٌ بصوتٍ عالٍ، ولم يحدث أي نقاش في بلدة كويكندن. اختفت السياسة، والتجمعات، والمحاكمات، ورجال الشرطة! وعاد منصب المفوَّض باسوف وظيفة بلا عمل، ولم يُخَفَّض راتبه؛ بسبب أن العمدة والمستشار لم يستطيعا الوصول إلى قرار بهذا الشأن.

ومن وقت لآخر، كان باسوف يتسلل خفية، دون أن يُحِس أحد، إلى أحلام تاتانمانس التي لا عزاء لها.

أما بالنسبة إلى خصم فرانتس، فقد تنازل بطيب خاطر عن سوزيل الفاتنة لحبيبها، الذي سارع بالزواج منها بعد مرور خمس أو ست سنوات على هذه الأحداث.

وأما السيدة فان تريكاس، فقد ماتت بعد عشر سنوات، في الوقت المناسب، وتزوج العمدة من الآنسة بيلاجي فان تريكاس، ابنة عمه، في ظروف ممتازة — بالنسبة إلى سعيد الحظ الذي سيخلفه.

الفصل السابع عشر

وفيه تفسير نظرية الدكتور أوكس.

* * *

إذن، ما الذي فعله الدكتور أوكس الغامض؟ لقد أجرى تجربة خيالية، لا أكثر ولا أقل.

بعد مدِّ أنابيب الغاز في الأرض، أشبع الأبنية العامة أولًا، ثم المساكن الخاصة، وأخيرًا شوارع كويكندن بالأكسجين النقي دون إدخال ولو ذرةً واحدةً من الهيدروجين.

انتشر الغاز العديم الرائحة والطعم بكميات كبيرة في الجو، مسبِّبًا عند استنشاقه هياجًا شديدًا للبشر؛ فمن يَعِش في هواء مشبع بالأكسجين يَزِد اهتياجه وتضطرم داخله المشاعر!

وفور العودة للمناخ الطبيعي، تعود لحالتك الطبيعية. على سبيل المثال، عندما كان العمدة والمستشار في قمة برج الكنيسة، كانا على طبيعتهما مجددًا؛ إذ بقي الأكسجين، بفعل وزنه، في الطبقات الدُّنيا من الهواء.

لكن من يعِش في هذه الظروف، ويتنفس هذا الغاز الذي يغيِّر الجسم فسيولوجيًّا وكذلك الروح، يقضِ نحبه بسرعة كالمجنون.

كان من حسن حظ سكان كويكندن إذن أن تدخلت العناية الإلهية ليحدث انفجارٌ وضع حدًّا لهذه التجربة الخطيرة وأباد مصنع الغاز الخاص بالدكتور أوكس.

وختامًا: هل الفضيلة والشجاعة والموهبة والذكاء والخيال، كلها ميزات أو مَلَكَات لها علاقة بالأكسجين فحسب؟!

هذا ما تقوله نظرية الدكتور أوكس، لكننا لسنا ملزَمين بقبولها، بل نحن نرفضها تمامًا، رغم التجربة الغريبة التي اتخذت من بلدة كويكندن القديمة الفاضلة مسرحًا لأحداثها.

هنداوي